

دار المصري للنشر والتوزيع

الطبعة الثانية

أحمد رجب ضحكة مصر

محمد توفيق



ولدي الصحفي الموهوب محمد توفيق

لا أعرف حتى الآن كيف تمت موافقتي على هذا الكتاب .. الأمر الذي يؤكد أنك تملك أدوات الصحفي الناجح الذي يملك صبر ومكر الثعالب , بل أنت الحاوي الذي مد يده فارغة إلى جيبي فأخرج كتاباً أنا سعيد به..

وسعيد بك أكثر في بلاط صاحبة الجلالة..

مع كل الحب.

مارس ٢٠١١

صفحات هذا الكتاب البديع جمعت كل ما كنّا لا نعرفه عن عزيزنا أحمد رجب إلى جانب ما كان البعض يعرفه.

إبراهيم سعده

رغم أنه كان لدي الشرف والحظ أن أعرف الأستاذ "أحمد" الإنسان بحكم علاقته بالوالد إلا أنني وجدت الكثير والكثير جداً في ما رواه المؤلف في كتابه مما لا أعرفه ولا يعرفه الكثيرون.

صفية مصطفى أمين

أعتقد أن الأستاذ أحمد رجب سيكون سعيداً بهذا الكتاب للصحفي المتميز محمد توفيق، ليس لأنه يوثّق مسيرته بحب شديد وتقدير يستحقه، وإنما لأن الكتاب به نصوص نادرة كان الأستاذ أحمد رجب يبحث عنها.

بلال فضل

تصميم الغلاف/عبد الرحمن الصواف



أحمد رجب.. ضحكة مصر

أحمد رجب.. ضحكة مصر
محمد توفيق

الطبعة الثانية ٢٠١٢

دار المصري للنشر والتوزيع
١٨ عمارات العرائس من شارع ٣٠٦ ـ المعادي الجديدة ـ القاهرة
ت : ٠١٢٨٢٣٤٣٨٧٩
٠١١٤٦٣٣٥٠٩٨
Email: elmasrypublishing@gmail.com
المدير العام: يوسف ناصف



تصميم الغلاف: عبد الرحمن الصواف
المراجع اللغوي: محمود عبد الرازق جمعة

رقم الإيداع: 2011/ 4897
الترقيم الدولي: 3 - 22 - 6378 - 977 - 978



بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

توفيق، محمد.
أحمد رجب : ضحكة مصر/ محمد توفيق.
القاهرة: دار المصري للنشر والتوزيع، ٢٠١١
٢٩٦ص؛ ١٤x٢٠سم.
تدمك: ٣ ٢٢ ٦٣٧٨ ٩٧٧ ٩٧٨
١- الصحفيون المصريون
٢- رجب ، أحمد إبراهيم ، ١٩٢٨ .
أ- العنوان
٩٢٠،٠٠٧

رقم الإيداع / ٤٨٩٧ / ٢٠١١

أحمد رجب.. ضحكة مصر

أسرار ونصوص تُنشر لأول مرة

محمد توفيق

الإهداء

إلى الأستاذ بلال فضل.. وعصير كتبه
لولاهما ما خرج هذا الكتاب إلى النور.

وإلى من تعبوا كي أرتاح.. أبي وأمي وأخي وأختي.

الفهرس

الفصل الرابع ....(أي كلام)

الفصل الخامس ....(الفهّامة)

الفصل السادس ....(كفر الهناذوة)

الفصل السابع ....(كلام فارغ)

الفصل الثامن ....(توتة توتة)

الطريق إلى أحمد رجب!

كل ما قرأته شيء.. والحقيقة شيء آخر!

فهناك صورة واحدة حاول كل من لم يعرفوه تصديرَها لنا، هي أنه رجل عَبوس ينتج الضحك ولا يستهلكه، ويتحدث عن البُسَطاء ولا يقترب منهم!

وهذه الصورة لم تفارق خيالي، وأنا في الطريق من بيتي إلى دار أخبار اليوم.

فقد ذهبت إليه وأنا أعرف أن دخول مكتبه «حَدَث» والحديث معه «انفراد»، وتسجيل حوار له يدخل ضمن دائرة التسجيلات النادرة، لكن شيطان الصحافة احترق بمجرَّد أن وقفت عند باب مكتبه.

هناك وجدت عمّ محمود الزملكاوي في انتظاري، وهو أول من يقرأ «نُصّ كلمة» قبل أي شخص آخر باعتباره المسؤول عن حملها يوميًا من مكتب الأستاذ أحمد رجب إلى سكرتير التحرير المسؤول عنها، على مدار

٤٢ سنة، وهذا الرجل يُعتبر ممثّل الشعب المصري بطيبته وصدقه ووفائه بدليل تشجيعه ناديًا يذهب مسؤولوه إلى المحاكم أكثر من ذهابهم إلى الملاعب.

استأذن عمّ محمود الأستاذ فسمح لي بالدخول قبل أن يأتي موعدي بعشر دقائق، وبمجرّد أن دخلت وجدته واقفا ليصافحني بابتسامة لم تفارق وجهه طوال ساعة ونصف الساعة قضيتها في مكتبه، فصافحته، وجلست أتحدث معه في محاولة لفكّ رموز شخصيته، ولوضع حدّ فاصل بين حقيقة هذا الرجل وأسطورته.

وجدت رجلاً يجمع بين حكمة الفيلسوف، وخفة دم المضحك، وتواضع العالم، ورؤية المفكر، وشهامة ابن البلد.. وعرفت السبب في الصورة العبثية التي رسمها له مَن لم يعرفوه!

فهو رجل يجيد التحكّم في عضلات وجهه فلا يضحك إلاّ عندما يكون في صحبة أصدقائه، ولا يستقبل في مكتبه إلاّ من يشعر بصدقه مهما كان موقعه، فيجلس مع النشّال ولا يقابل الوزير، ويصافح الرجل البسيط ولا يلتفت إلى المسؤول الكبير.

فهو رجل صنعته الكتابة، لا الدعاية لما يكتبه، فيمكن ببساطة أن تحصر عدد الحوارات الصحفية والتليفزيونية التي أجريَت معه على مدى نصف قرن، ورغم ذلك ظلّ الكاتب الأكثر تأثيرًا -مثلما وصفته الصُّحُف الأجنبية- وكتبه ظلّت الأكثر مبيعًا لدرجة أن وكالة «رويترز» قالت إنها «تُباع كالحلاوة في الأسواق»، وذلك عندما وصلت مبيعات كتاب «أي كلام» إلى ٩٠ ألف نسخة في عام ١٩٩٠.

في هذا التوقيت تعلمت القراءة، وتَعَرَّفْتُ إلى أحمد رجب عبر «نُصّ كلمة» واقتربت منه عن طريق «فلاّح كَفر الهناذْوَة»، وشعرت أنه يكتب مَا أريد أن أقوله، وتمنيت أن أصبح صحفيًا لأسير على خُطاه، وعندما أصبحت طالبًا في السنة الأولى بكلية الآداب قسم الصحافة ذهبت للتدرُّب في «أخبار اليوم» على أمل أن أقابله مصادفة.

فهو عند جيلي وليٌّ من أولياء الكتابة الذين لا يمكن العيش دونهم، وصورته معلّقة على جدران منزلي لأسلّم عليه كل صباح وألجأ إليه في المساء ليكون سَنَدًا لي في رحلة البحث عن المتاعب.

من هنا جاءت فكرة هذا الكتاب. في مارس ٢٠٠٨ بدأت رحلة البحث عن كل ما كتبه، وما كُتب عنه في أرشيف أخبار اليوم، والأهرام، ودار الكتب، وسور الأزبكية، والمكتبات العامّة، والخاصّة، لكن الرحلة على قدر صعوبتها كان جمالُها ومتعتُها التي تتحقق عندما أصل إلى مقال نادر أو معلومة جديدة أو حوار قديم، لكن حين قرّرَت أن أبدأ الكتابة كان لا بد أن أقابله.

فتوجهت إلى الأستاذ بلال فضل الذي لم أقابله سوى مرة واحدة في حياتي، وطلبت منه أن يساعدني، وكانت المفاجأة عندما وجدت عمنا أحمد رجب يتصل بي، ووقتها كدت أفقد حاسّة النطق، لأنني لم أردّ عليه! فقد كنت بعيدًا عن التليفون، وتأكدت أني «نحس»، لكن بعد دقائق وجدت جرس التليفون يضرب من جديد ليبدأ الحديث بين الولي والمريد...

الفصل الأول

«إن ما يجرى في عروقي ليس دماء وإنما حبر المطابع»

برج العقرب

لا يحب أن يذكر تاريخ ميلاده، فهو شابٌّ حتى لو بلغت سِنُّه ألف عام!

لا تضع له قانونًا، فهو رجل له قانونه الخاصُّ، وليس أمامك إلاَّ أن تعترف بعبقريته، لأنه ليس كسائر الرجال، تجده وقورًا، ووفيًّا، وصادقًا، ويبعث على السرور، لكنه يميل إلى العزلة، ويفضِّل أن يراقب الأحداث من بُعد.

فقد وُلد ليكون جاهزًا للتحدِّي، لا يخاف ولا يتراجع، ويدافع عن مبادئه مهما كانت العواقب، ولا يهادن، ولا يحاول أن يلبس قناعًا، ولا أن يستعير صفات ليست له، ولا يرتاح لمعاشرة أهل الثروات لأنه عفوي وغير متكلف.

إنها صفات مواليد برج العقرب التي لا تنطبق إلاَّ على شخص واحد فقط -كما يؤكد علماء الفلك- هو الكاتب الفَذّ أحمد رجب الذي لم أجد سوى ورقة وحيدة في أرشيف دار أخبار اليوم تحمل بياناته الشخصية رغم أنه عاش أكثر من نصف قرن داخل هذه المؤسَّسة!

ورقة واحدة فقط وقَّعها بخط يده في عام ١٩٥٩ عندما كان مديرًا لتحرير مجلة «الجيل»، وكتب فيها اسمه الثلاثي المسجَّل في شهادة الميلاد «أحمد إبراهيم رجب»، من مواليد منطقة الرمل بمحافظة الإسكندرية.

تَعَلَّم في مدرسة رياض باشا الابتدائية، وكان يحب حصة الموسيقى ويكره علم الحساب، وبسببه قضى طفولة سعيدة جدًّا كلها ضرب في ضرب على حدِّ تعبيره، وعندما كان المدرس الخصوصي يعلن أنه توصل إلى حل مسألة جبر، كانت أمه تطلق الزغاريد وتوزِّع الشربات على الجيران.

في الوقت نفسه حاول أن يتعلم الموسيقى، فالتحق بمعهد جيوفاني ليتعلم آلة الكمان التي أحبها كثيرًا، وبعد الدرس الرابع اشترط عليه الخواجة جيوفاني أن يشترى كمنجة إذا أراد الاستمرار في دروس المعهد.

ويروى أحمد رجب ذكرياته في هذه الأيام بقوله: «كافحت طويلاً من أجل اقتناء الكمنجة، إلاَّ أن الرأي استقرَّ على أن تلك الكمنجة ودروسها سوف تشغلني عن المذاكرة، وعن الدروس الخصوصية في الجبر، وانتهت معركتي من أجل الكمنجة بوعد أكيد بأنني إذا نجحت في الجبر آخر السنة فسوف تكون الكمنجة هدية النجاح، فبدأت جهودًا أسطورية لكي أنجح في الجبر، ورحت أسهر الليالي في طلب المعالي، وطلب الكمنجة، عاكفًا الليل بطوله في محاولات مستميتة لحل المقادير الجبرية، حتى أصبحت -لكثرة الجهد- نحيلاً شاحبًا، كل شيء في جسمي صار رفيعًا إلاَّ مُخِّي، فقد ظلَّ تخينًا لا يستطيع الجبر اقتحامه، فضاعفت الجهد لأحقِّق -في النهاية- تفوُّقًا رائعا إذ تمكنت من الحصول على أعلى درجة للنجاح في الجبر أيامها: ٤ على ٢٠.

وجاءت الكمنجة التي أحبها أحمد رجب لكنها لم تحبه!

فقد ظلَّ طالبًا في معهد الموسيقى لمدة ثلاث سنوات إلى أن جاء له صاحب المعهد جيوفاني ذاته، وقال له: يا ابني أنت معنا منذ سنوات، و لم تتعلم شيئًا، ولن تتعلم شيئًا، لأن يدك ليست ميكانيكية[١].

لكن أحمد رجب لم يقتنع بما قاله جيوفاني إلاّ بعد سنوات طويلة، يتذكرها بقوله: تأكدت من صدق جيوفاني عندما كنت أحاول مساعدة زوجتي في المطبخ، فكنت أقوم بـ«تكسير» الأطباق بسبب عدم مرونة يدي في الحركة! ومن هنا أصبحت مبهورًا بأي شخص يعزف على آلة الكمان لأنها كانت أمنية حياتي التي لم أستطِعْ تحقيقها.

لم تكُن عقدة الكمنجة وحدها التي تطارد أحمد رجب، ففي سنوات الطفولة تَعَرَّض لواقعة جعلته يكره اليوم الذي يذهب فيه إلى الحلاق! ويروي تفاصيلها بقوله: «ذهبت أحلق شعرى وأنا في المدرسة الابتدائية فدخل رجل صالون الحلاقة وفي يده ابنه في مثل عمري، فقصَّ الرجل شعره وحلق ذقنه، وجاء الدور على الولد الصغير فأجلسه الحلاق على منضدة ليقصَّ شعره بينما ذهب الأب إلى الحانوت المجاور بعد أن نَفِدَت سجائره، وجُنَّ جنون الأسطى رشوان عندما اكتشف أن الرجل ليس أبا الولد الصغير، وأنه اصطحبه من الطريق ليتركه رهينة عند الحلاّق باعتباره ابنه ويفرّ دون أن يدفع الأجرة!

---

(١) مقابلة شخصية.

ولم يكتف الحلاّق بضرب الولد المسكين الذي لا ذنب له، بل أمسك بي أنا أيضًا وهو يصيح: وانت كمان أبوك فين؟ يا ولاد النصّابين!

ولم أدر في مقاومتي أنني كسرت "قصرية" زرع فتحوّل الحلاّق إلى القصرية المكسورة وتحولت أنا إلى الشارع أسابق الريح، ومن يومها أصِبْتُ بما يمكن أن يُسَمَّى بـ"الحلاقة فوبيا"»!

كان ذلك قبل أن يصل أحمد رجب إلى مدرسة «العباسية الثانوية» التي تخرج فيها توفيق الحكيم وعدد كبير من الوزراء والمسؤولين، وفي هذه المرحلة كان شديد الانبهار بنابليون بونابرت، ومن أجله دخل الجمعية التاريخية ليتعمق في دراسته، ومن أجله أيضًا شاهد كل فيلم سينمائي يروي قصة حياته أو جانبًا منها.

وحصل أحمد رجب على شهادة التوجيهية، والتحق بكلية حقوق جامعة الإسكندرية، وهناك ظهرت مواهبه وقدراته كصحفي فذ وساخر مبدع، فقد كان يقوم بعمل مجلة «أخبار الجامعة»، وكانت ناجحة للغاية، فقد وصل توزيعها إلى سبعة آلاف نسخة، وهو رقم كان يتعدى أشهر المجلات المصرية أيامها، ويتعدى توزيع بعض صحف ومجلات هذه الأيام، وبسبب هذه المجلة تمت إحالته إلى مجلس التأديب مرتين، إحداهما كانت بسبب موضوع كان ينتقد فيه عميد الكلية بأسلوب ساخر، ويومها أنقذه الدكتور حسن أبو السعود أستاذ القانون الجنائي وعمّ الفنانة صفاء أبو السعود، حيث كان ضمن لجنة التحقيق، وقال: «لازم نعلم الشباب الديموقراطية في الجامعة»، وتركه دون أن يتخذ أي إجراء ضده[٢].

---

[٢] مقابلة شخصية.

ويعلّق أحمد رجب على تلك الواقعة قائلاً: «شفت الجامعة زمان كانت عاملة إزاي؟!».

و لم يكُن الدكتور حسن وحده الذي يتعامل بهذه الطريقة الراقية التي اختفت من جامعاتنا، لكن كان هناك أساتذة كثيرون يؤمنون بنفس الأسلوب في التعليم، منهم الشيخ فرج السنهورى أستاذ الشريعة، كان رجلا مستنيرًا عظيمًا واسع الأفق على حد تعبير أحمد رجب، الذي يروي ذكرياته معه قائلا: أذكر أنني كتبت عنه مرة حديثًا بعنوان «حديث لم يحدث»، أي حديث من وحي خيالي، وسألته: «ما رأيك في ما يقال من أن قاضيًا في الجنّة وقاضيين في النار؟» (وكان من قبل رئيسًا للمحكمة الشرعية العُليا)، فردّ فضيلته: صحيح، هذا صحيح، القاضي الذي في الجنَّة هو القاضي الشرعي، أما القاضيان اللذان في النار، فواحد "أهلي" والثاني "مختلط" (ويقصد به نادي الزمالك).. وكانت المحاكم المختلطة موجودة أيامها».

في الجامعة التقى أحمد رجب، حُسْن شاه، وكانت طالبة في الفرقة الأولى بينما كان هو في الفرقة الثالثة، ووقتها كان واحدًا من أشهر الطلاب وأكثرهم نشاطا، وتتذكر حُسْن شاه تلك الأيام بقولها: قابلت أحمد رجب لأول مرة عندما كان مسؤولاً عن الصحافة بالكلية، وكانت علامات النبوغ واضحة عليه، فكان يعرف من أول يوم في كلية الحقوق أنه سيصبح صحفيًا، فكان يردّد: «إن ما يجرى في عروقي ليس دماءً وإنما حبر المطابع»! واستمرت علاقتي به، وكان السببَ في اتجاهي إلى العمل في الصحافة رغم أنني كنت أتمنى أن أصبح محامية.

لم تكُن الكاتبة حسن شاه –التي كانت سببًا في تغيير قانون الأحوال الشخصية– الوحيدة من بين أصدقاء الجامعة الذين استمرّت علاقة أحمد رجب بهم، فهناك الدكتور على السمان والكاتب الصحفي عبد الفتاح

الديب الذي اشترك معه في فريق التمثيل، لكنه ترك التمثيل بعد أن اندمج «الديب» على المسرح متقلدًا سيفه وهو يؤدي دور لويس الحادي عشر وأحمد رجب يلعب دور القسيس. والديب يقول له: فإذا سكن الليل يا أبتاه.. خُيِّل إليّ أنني أسبح في بحيرة من الدماء.

لكن أحمد رجب نسي الحوار وأخذ يرتجل قائلاً: هل قلت يا بني أنه يُخَيَّل إليك أنت أنك تسبح في بحر من الدماء؟

فردَّ الديب: نعم يا أبتاه

فقال رجب: وما لون هذه الدماء بالضبط يا بني؟ هل هي قرمزية أم وردية أم تميل إلى السواد؟

فهمس الديب: «إيه ده؟! الله يخرب بيتك!

فردَّ عليه: أصلي نسيت الكلام.

ثم ارتفع صوت أحمد رجب فجأة: تكلم يا بُني، ما لون هذه الدماء التي تراها في المساء ونجوم الليل تنتشر؟

فضحك الجمهور، وتَقَرَّر فصل أحمد رجب من فريق التمثيل، فترك هواياته الفنية وقرَّر أن يتفرغ للعمل في بلاط صاحبة الجلالة.

تَخَرَّج أحمد رجب في كلية الحقوق عام ١٩٥١ قبل عام واحد من قيام ثورة يوليو، ليصبح محاميًا للشعب المصري بكل طوائفه، وليدافع عن البُسَطاء الذين لا يستطيعون الذهاب إلى ساحة القضاء ولا يملكون الأموال التي تجعلهم يوكِّلون من يدافع عنهم، ويتحدث بلسانهم أمام

المسؤولين، فالتحق بدار أخبار اليوم وعمل مراسلاً لمجلّة الجيل في الإسكندرية مع صديقه محسن محمد (رئيس تحرير الجمهورية في ما بعد)، وفي هذا التوقيت كانت الإسكندرية مدينة هادئة تنام في السابعة مساء -على حدّ تعبير أحمد رجب- لذلك كان يبذل مجهودًا كبيرًا من أجل أن تصلح موضوعاته للنشر في مجلّة توزّع في كل المحافظات.

ونجح في ما أراد، وتَفَوّق، ولفت الانتباه إليه، وذلك عندما ذهب موسى صبري إلى مكتب أخبار اليوم بالإسكندرية في صيف عام، ١٩٥١ ويروى «صبري» تفاصيل ما جرى بقوله: لفت نظري وأنا أراجع الأخبار المُرسَلَة إلى القاهرة، أخبار مكتوبة بخطّ جميل، وبالحبر البنفسجي، وكلها أخبار جيّدة عن الجامعة.. وسألت عن كاتب هذه الأخبار، فقدّموا لي شابًا متخرجًا في كلية الحقوق بجامعة الإسكندرية، وقدّم هو لي مجلّة كان يُصدرُها في الجامعة، وبهرني أسلوبه الكاريكاتوري الساخر، وعندما عُدْتُ إلى القاهرة بعد رحلة الصيف، طلبت من علي أمين استدعاء هذا الشابّ اللامع إلى القاهرة ليعمل في مجلّة الجيل.. وكان هذا الشابُّ هو أحمد رجب، الذي أصبح ألمع كاتب ساخر في مصر![٣]

وبالفعل قرّر التوأم مصطفى وعلي أمين نقله من مكتب الإسكندرية للعمل في القاهرة، ليبدأ أولى خطواته نحو عالم الكبار.

---

[٣] موسى صبري: ٥٠ عاما فى قطار الصحافة، دار الشروق، ص١٥٤

الهواء الأسود

صعد أحمد رجب القطار المتجه إلى القاهرة، وذهب إلى ٦ شارع الصحافة ليبدأ رحلة البحث عن المتاعب داخل دار أخبار اليوم في عام الثورة.

في البداية كان يحرِّر بابًا ثابتًا بعنوان «هذه الجريمة لغز.. فتعالوا نحلُّه معًا»، وكان عبارة عن عرض وتحليل لإحدى الجرائم التي حدثت خلال الأسبوع و لم يُستدل على مرتكبها، وظل يحرِّر هذا الباب لثلاث سنوات، انتقل بعدها لكتابة باب آخر بعنوان «أخبار الأسبوع»، وكان عبارة عن رصد وتعليق على الأحداث التي وقعت خلال الأسبوع، لكن بعد فترة من كتابته المنتظمة في هذا الباب غيَّر طريقة تقديمه، وأصبح يكتب فيه عن المشاهير، فكتب في هذا الباب عن عدد كبير من نجوم الفن والفكر، منهم توفيق الحكيمو يَحيَى حَقِّي وصلاح جاهين وصلاح أبو سيف.

في هذا التوقيت جاء إلى أحمد رجب أحد العاملين بالإعلانات وقال له: «عندي قصة حلوة، ينفع تنشرها؟

وأخرج له صورة أحد أقاربه، وقال له: هذا الرجل يعمل مُقرِئًا، وهناك سيدة سورية تحبه وتطارده.

وبالفعل أُعجِبَ أحمد رجب بالقصّة واطلق على المقرئ الشابّ لقب «الشيخ براندو»، ونشر صورته التي تشبه الممثّل العالمي مارلون براندو، واشتهر المقرئ وارتفع أجره من ٣٠ جنيهًا إلى ٣٠٠ جنيه، وصار واحدًا من علامات قراءة القرآن في مصر... إنه الشيخ عبد الباسط عبد الصمد! لكن بعد أن وصل الشيخ إلى قمّة مجده طلب من الرئيس جمال عبد الناصر أن يقرّر وقف نشر هذه الحلقات، وبالفعل تمّ وقفها.

لكن أطرف الأبواب التي كان يحرّرها أحمد رجب في هذه الفترة هو باب «بختك هذا الأسبوع» الذي يروي قصته قائلاً: [أعترف أنني لا أفهم شيئًا مُطلَقًا في علم الفلك، فكل معلوماتي عن هذا العلم تنحصر في أن بالقاهرة شارعًا اسمه شارع الفلكي. كذلك لا أفهم شيئًا في النجوم والتنجيم وقراءة الطالع، غير أن هذا لا يمنع من الاعتراف بأنني اشتغلت منجّما ذات يوم، إذ كنت أحرّر باب «بختك هذا الأسبوع»، وفي كتابة باب البخت لم أكن أشتغل بالتنجيم بقدر ما كنت أحاول بثّ التفاؤل في نفوس قُرّاء البخت، فما دامت المسألة «كَذبَ الْمُنَجِّمُونَ وَلَوْ صَدَقُوا»، فما الذي يمنعني أن أقول لمواليد برج العقربَ: مفاجأة سارّة في انتظارك، وأن أقول لمواليد برج الحوت: سعادة تامّة في محيط الأسرة، وأن أبشّر مواليد برج الميزان بفلوس زي الرُّزّ.

وصحيح أن المفاجأة السارّة لواحد عقربيّ (من مواليد العقرب) قد تكون وقفه عن العمل وإحالته إلى النيابة الإدارية، وبالنسبة إلى واحد حوتيّ قد تكون السعادة التامّة في محيط الأسرة هي خناقة لرب السما

تنتهي بالعبارة المأثورة «والله ما انا قاعدة لك في البيت»، وفي الوقت الذي أبشّر فيه واحدًا ميزانيَّ البرج بفلوس زي الرز، قد يكون هذا الميزانيّ دايخ على جنيه سلف لأول الشهر.

ولكنه لا يمنع من أن أعطي القارئ الأمل الحلو، وأن أملأ صدره بالتفاؤل، فما دام المنجمون كذابين ولو صدقوا، وما دامت المسألة مفترَضًا فيها الكذب في النهاية، أليس هذا إذن أفضل من أن أقول للقارئ: «مصيبة محترمة في انتظارك» أو «ضائقة مالية تنتهي بفضيحتك والحجز على هدومك»؟ وكانت هذه تعليمات علي أمين: بث التفاؤل في كتابة البخت .

موهبة أحمد رجب كانت أكبر من حصرها في باب بعينه، لذلك تَدَرَّجَ في المناصب حتى وصل إلى منصب نائب رئيس تحرير مجلة «الجيل» –كان أنيس منصور يتولى منصب رئيس التحرير– وفي الوقت نفسه تمّ اختياره ليكون مديرًا لتحرير مجلة «هي» التابعة لدار أخبار اليوم، وكان مشهودًا له بالكفاءة والحزم.

في ذلك التوقيت كان مسرح اللا معقول يسيطر على العقول، وكان مريدوه أغلبهم من نجوم المجتمع وكبار النُّقَّاد الذين يرون فيه النموذج لما يجب أن يكون عليه المسرح، وقتها قرَّر أحمد رجب أن يُثبت أنه لا يوجد شيء اسمه مسرح اللا معقول، وأن «اللا معقول» هو ما يفعله النُّقَّاد الذين يروِّجون لهذا المسرح!

وبالفعل، وضع الخطة لأكبر خبطة صحفية عرفتها مصر، وقام بتنفيذها في مجلة «الكواكب»، التي انتقل للعمل فيها بصحبة مصطفى

وعلي أمين، في مارس ١٩٦٣عندما نشر مسرحية أطلق عليها «الهواء الأسود» وقال إنها مسرحية لم تُنشَر من قبل للكاتب المسرحي السويسرى الشهير فردريك دورنيمات، ودعا كبار النُّقَّاد للتعليق عليها باعتبارها إحدى روائع مسرح «اللا معقول»!

وبالفعل علَّق عليها النُّقَّاد وأشادوا بروعتها، وبعبقرية مؤلِّفها، وبالدلالات المهمَّة التي تحملها... وبعد أن انتهت تعليقاتهم خرج عليهم أحمد رجب ليؤكد أن ما يفعله هؤلاء النُّقَّاد هو اللا معقول ذاته! وكشف أنه هو مؤلِّف هذه المسرحية العبثية قائلاً: «أنا الموقع أدناه أحمد رجب أقرُّ وأعترف بأنني كاتب مسرحية "الهواء الأسود" وأنني مؤلفها "الأوحد".. وأن الخواجة فردريك دورنيمات الكاتب المسرحي السويسرى لا علاقة له إطلاقًا بهذه المسرحية.. وأنه ليس له أي إنتاج مسرحي بهذا الاسم!

وأنا الموقِّع أدناه أحمد بن رجب أُقرُّ وأعترف أنني كتبت هذه المسرحية في مكتبي بالغرفة رقم ٤٠٦ بمبنى دار الهلال بالسيدة زينب.. وأن هذه المسرحية لم تُكتب إطلاقًا في لوزان ولا جنيف ولا زيورخ، وأنني كنت أكتب هذه المسرحية الخالدة وأنا مصاب بنوبة ضحك شديدة.. فلست أدري لماذا كان يُضحكني جدًا اسم "شِتاتلر" كلَّمَا كتبته.. ولا أعرف لماذا كنت أفطسُ على نفسي من الضحك كلَّمَا كتبت عبارة حوار لا معنى لها.. أو كلَّمَا خط قلمي جملة منطلقة على السجيَّة بلا أي تفكير ولا تدبير!

وفي أثناء انهماكي في كتابة هذه المسرحية الخالدة.. دخل مكتبي الزميل حلمي سلام وسألني ماذا أكتب، فقلت له: "مسرحية لمسرح اللا معقول"، وتناول حلمي الأوراق التي كتبتُها وراح يقرأ وهو فطسان من الضحك!

والظاهرة التي هي في منتهى العجب أن كتابة هذه المسرحية كلها لم تستغرق أكثر من ساعة ونصف ساعة! فقد كنت أكتبها بلا أي تفكير ولا منطق.. الأمر الذي سهَّل مهمَّتي كثيرًا! فما دام مسرح اللا معقول لا يحكمه أي منطق أو مألوف.. فمش ضروري منطق ولا مألوف.

وعندما انتهيت من كتابتها جلست أهرش رأسي بحثًا عن عنوان خطير للمسرحية الخالدة.. وفي هذه الأثناء دخل مكتبي صديقي مرسي الشافعي مدير تحرير "المصور".. وإذا به يقرؤها ثم يكاد يقع من الضحك، واقترح عليَّ مرسي الشافعي أن أسمي المسرحية "الهواء الأسود".. فكتبتُ الاسم فورًا لأنه فعلاً اسم يحمل رائحة اللا معقول. وقد تحيرت في توقيع المسرحية، هل أوقعها باسم أحمد فريدريك أم أحمد يونسكو أم أحمد بيكيت.. أم رجب دورنيمات.. وانتهى الأمر بموقيعها باسم "فريدريك دورنيمات".. باعتبار أن إنتاجه لم يصل إلينا بعدُ، وممكن الحكاية تفوت»!

وأضاف قوله: «وقبل أن أدفع بالمسرحية الخالدة إلى يد سعد الدين توفيق رئيس تحرير الكواكب.. دفعت بها إلى زوجتي!

فزوجتنا ساخطة أشد السخط على مسرح اللا معقول.. وإذا أبدت سخطها على ما كتبت.. فمعنى ذلك أن المسرحية قد نجحت فعلاً!

قلت لها: اقرئي يا زوجتنا هذه المسرحية وقولي لي رأيك! فهذا الإنتاج العظيم من تأليفنا..!

وعندما انتهت زوجتي من قراءتها ضربت صدرها بيدها وهي تقول لي: إنتَ بتسكر من ورايا يا راجل؟ إيه الكلام الفاضى ده اللي مالوش لا

راس ولا رجلين! ده كلام سكرانين ومساطيل، دي الرواية دي زي ما يكون حلم مزعج يشوفه واحد في منامه بعد ما يتعشى بحلة مسقّعة.

وقالت لي زوجتي إنني إذا كنت مصمّمًا على الكتابة كده على طول، فأحسن أفتح لي دُكّان فول وطعمية.

وكان معنى كلام زوجتي هذا أن "الهواء الأسود" قد نجحت كمسرحية لمسرح اللا معقول.. وأن النُّقّاد سوف يشبعون مدحًا وتقريظًا لها!

وأعطيت المسرحية بمنتهى الاطمئنان إلى سعد الدين توفيق.. وانتهى دوري عند هذا الحد والله العظيم!».

واختتم كلامه قائلاً: «والآن.. شكرًا لهؤلاء النُّقّاد على مدحي وتقريظي.. طبعًا هذا شرف عظيم أن يُجمعُوا على أنني مؤلف مسرحي عالمي خطير الشأن، وبعد تعليقهم هذا هناك أمر من اثنين: إما أنني مؤلف مسرحي خطير فعلاً رغم أنني لم أكتب للمسرح أي إنتاج حتى الآن، وإما أنهم يرجعون في كلامهم بعد أن عرفوا الحقيقة وهي أن مؤلف "الهواء الأسود" ليس خواجة وإنما هو أحمد بن رجب، ولذلك اعتبرت نفسي مؤلفًا مسرحيًا عالميًا أضع اسمي بكل فخر إلى جوار الخواجات: بيكيت ويونسكو وأوزبورن وكوكتو، ومن له اعتراض من النُّقّاد فليتقدم».

بعد أن كشف أحمد رجب عن فضيحة الموسم الثقافية، التي أنهت أسطورة نقاد «اللا معقول»، علّق طه حسين بقوله: إنها عقدة الخواجة فعلاً.

أما عباس العقَّاد فقال: وُفِّقَ الكاتب الصحفي أحمد رجب إلى حملة ناجحة على أسلوب "النقد اليدوي" منذ أيام، فلفَّق رواية خنفشارية باسم "الهواء الأسود" ونسبها إلى مؤلف خنفشاري في إحدى الديار الأوربية فاهتزَّت لها أعطاف النُّقَّاد المحترمين إعجابًا وطربًا وارتفعوا بها إلى قمم العبقرية فنًّا وأدبًا وقارنوا بينها وبين بدائع المنثور والمنظوم التي فاضت بها قريحة المؤلف المعدوم، وهنَّؤوا العربية بهذه التحفة النادرة من السحر المفهوم وغير المفهوم، ولو أمهلهم الصحفي الماكر أسبوعًا واحدًا لاحتدمت بينهم المعارك، ودارت بينهم الدوائر في ما هو أفضل من تلك الفصول والمناظر.

وأضاف: هؤلاء النُّقَّاد المحترَمون أولى مَن ينبغي أن يساق إلى (محكمة التزييف) لحماية هذه الأمَّة من وبال دعواهم.

أما توفيق الحكيم فقد دافع عن أحمد رجب، وردَّ على النُّقَّاد الذين هاجموه قائلاً: هذا مقلب ظريف ولطيف.

بينما قال الأديب الكبير إحسان عبد القدوس: كل ما نرجوه من السادة النُّقَّاد أن يُصرُّوا على رأيهم الخطأ.. وأن يرفعوا أحمد رجب إلى مرتبة الكتاب العالَمين.

واتفق معه الشاعر الكبير صلاح عبد الصبور، وأضاف قوله: إن هذا أعظمَ عمل نقدي للنُّقَّاد قامت به الصحافة طوال السنوات الأخيرة!

أما الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي فعلَّق قائلاً: إن وقوع أربعة من النُّقَّاد المعروفين في هذا الخطأ الفادح يجب أن ينبِّهنا إلى أن الإحساس بالمسؤولية واحترام الثقافة شيئان نفتقر إليهما في كثير من نشاطنا.

بينما علق الكاتب الصحفي موسى صبري على هذه الفضيحة الثقافية قائلاً: إن درجة الأستاذية الفخرية التي منحها البارودى (أحد النُّقَّاد الأربعة) لأحمد رجب هي أول درجة من نوعها يجود بها الناقد الكبير خلال عشر سنوات ضرب فيها جميع كتاب المسرح بالشلاليت وكوى ظهورهم بالكرابيج وهو يصرخ بأعلى صوته: «تَعَلَّمُوا يا جَهَلة.. اقرؤوا أرسطو يا حُمُر.. افهموا الدراما يا بَجَم»، ثم فجأة هدأت أعصاب البارودي عندما قرأ مسرحية عبقرية اسمها «الهواء الأسود» لكاتب عبقري اسمه أحمد رجب.. كتبها لمجرَّد التريقة!

لكن الغريب أن أحمد رجب فكَّر في عمل خبطة صحفية أخرى لا تقل قوة عن فضيحة «الهواء الأسود»، وهي أنه اتفق مع فنان كبير صاحب موهبة عظيمة لكنه كان يعاني من قلة العمل أن يكتب خبر نعيه وهو حي يُرزَق! ويوضِّح فيه أن جنازته قد شُيِّعت من بلدته في الصعيد، ثم يختفي لمدة شهرين على أن تتحمل دار الهلال مصاريفه خلال تلك الفترة، لكن بعد أن تمّ ترتيب كل شيء تراجع الفنان لتشاؤمه من الفكرة.

ويعلِّق أحمد رجب على عدم اكتمال هذه الفكرة قائلاً: ضاعت عليه فرصة قراءة وسماع برامج تمجيده والإشادة بعبقريته، فقد كنت أنوى أن أظهر به بعد أن تكتب عنه كل الصُّحُف ويتحدث عنه المخرجون والنُّقَّاد وأقول لهم: «طيب الفنان أهه.. طلع عايش.. يا ريت بقى تشغَّلوه عشان هو مش لاقى ياكل»[٤].

---

[٤] حوار في مجلة «الكواكب» في ٢٦ أبريل ١٩٧٧.

لسوء حظنا لم تكتمل هذه الفكرة الفذة، لكن «الهواء الأسود» كانت كافيه لترفع من أسهم أحمد رجب المهنية وتجعله من نجوم الصف الأول في بلاط صاحبة الجلالة، فبعد أن كان يكتب باب «أخبار الأسبوع» في مجلة «الجيل» أصبح يكتب أكثر من باب في أكثر من مجلة، منها باب «سين وجيم» في مجلة «آخر ساعة»، وهو عبارة عن سؤال يتوجه به إلى إحدى الشخصيات العامَّة ويجيب عنه بطريقة ساخرة.

وبعد «سين وجيم» ابتكر بابًا آخر هو «حديث لم يحدث»، وهو عبارة عن حديث مع مسؤول كبير أو نجم شهير في مجاله، ويدير في هذا الحديث الذي لم يحدث مع المسؤول عن كل ما يدور في ذهن الناس ويجيب بطريقة ساخرة عن الأسئلة التي طرحها، لكن بعد فترة توقف «حديث لم يحدث» وحل محلّه مقال ساخر في الصفحة الأخيرة دون أن يكون له اسم ثابت، وكان من أوائل المقالات التي كتبها في هذا المكان مقال بديع بعنوان «مع السلامة يا شباب» يقول فيه: «شيء لطيف جدًّا أن يكون الإنسان عنده شباب، وعنده صحَّة، وعنده علبة كبريت بتولع!

عن الصحة فالحمد لله، عن الكبريت فما زلت أعيش على أمل أن أشتري ذات يوم علبة تولع، أما الشباب فلا أملك –في سن الأربعين– إلا أن أستعد لكي ألوِّح له بيدي مودِّعًا: مع ألف سلامة!

ولست نادمًا على أن الشباب يستعدُّ للرحيل، ولست أيضًا كوالدي جليل البندراي الذي يتمحك في الشباب، فيحاول أن يحتفظ بشبابه متبعًا أربع قواعد: النوم كفاية، والأكل الصحِّي، ولعب الرياضة، والكذب على أي واحد يسأله: سنّك كام؟

ولقد سُئلت مرة في برنامج إذاعي، هل تتمنى أن تعود إلى أيام الصبا والشباب، فرفضت هذه الأمنية وقلت: أعتقد أن الشعر الأبيض الذي غطى رأسي هو شيء مفيد جدًا، إذ يوحي للناظرين -كذبًا- بأنني في منتهى العقل والحكمة، تمامًا كما توحي النظارة الطبية فوق عينَيَّ بأنني مثقف، وممكن أتكلم كلامًا لا يفهمه أي حد ولا حتى أنا!».

في هذا التوقيت دخل أحمد رجب غرفة العظماء وبدأ رحلته مع «نُصّ كلمة» التي خرجت إلى النور كعمود يومي في الصفحة الثامنة بجريدةَ الأخبار في عام ١٩٦٨.

سِرّ العُزلة

على مدى نصف قرن من الزمن لم تتغيرعاداته يومًا!

يمكن أن تضبط ساعتك عند ظهور سيارته أمام المبنى القديم لدار أخبار اليوم بالضبط.. في تمام العاشرة ينزل من مَقْعَده الأمامي المجاور للسائق ثم يمضي مباشرة إلى المدخل، إلى المصعد، إلى حجرته لا يلتفت يمينًا أو يسارًا، وإذا التقاه شخص ما فإنه يتحاور معه بسرعة، يجيب إجابات مقتضَبة، كأنه يعلن عن رغبته في الانفراد.

يدخل حجرته التي لا يمكن أن تدخل إليها مباشرة، فهي مُغلَقة تمامًا، يضيئها نور خافت، غير مباشر، مجرّد مكتب ومكتبة ومَقْعَدين في مواجهة المكتب مباشرة، ومذياع وجهاز تسجيل تنبعث منه طوال النهار موسيقى كلاسيكية يفضّلها.

بمجرّد دخوله يتقدم ليغلق الباب الخارجي بالمفتاح، لمدة ساعتين يظل بمفرده، بعدها يدقّ الجرس على عمّ محمود الزملكاوي، ليحمل -في الثانية عشرة ظهرًا- إلى سكرتارية تحرير الأخبار، ورقة بخطه تحتوي على

سطرين أو ثلاثة أو أقلّ، ربما سطر واحد، كلمات قليلة مكتوبة بخط كبير نسبيًا، منسّق، منمّق، تبدأ سطوره على مسافة من حافّة الصفحة وتنتهي قبل حدّها الأيسر، تتوسط الفراغ الأبيض، لا يوجد فيها حرف واحد مشطوب، إنها نصف كلمة التي يكتبها يوميًا في جريدة الأخبار[٥].

هكذا يقضي أحمد رجب يومه داخل مكتبه بأخبار اليوم، سواء كان في مكتبه الذي انتقل إليه منذ سنوات قليلة أو في الغرفة ٥٣ التي يصفها بقوله: «أقيم -داخل أخبار اليوم- في غرفة ذات موقع جغرافي نادر، يحدّها شمالاً -عند السقف- ورشة حفر الروتو، وجنوبًا مطابع الأخبار، وغربًا نافذة بعرض الحائط تُطل على خمس ورش في الشارع، شرقًا باب يقع على ممر كله زعيق.. زعيق.. زعيق مع صوت سوبرانو مجهول لم أستطع اكتشاف مصدره حتى اليوم لا يكف عن ترديد: ميتًا أشوفك يا غايب عن عيني! داخل الكارُّو!

وفي كل صباح أجلس في كرسي مكتبي وكأنني أجلس في طيّارة داكوتا قديمة، أو طيّارة كارُّو، فكل شيء في الغرفة يهتزّ، الأرض تهتزّ، السقف يهتزّ، والزجاج يهتزّ، فالسقف في حالة زلزالية مستمرّة من ورشة حفر الروتو التي تُصدر صوتًا لا يُفرَق أبدًا عن صوت ألف آلة لحفر الأسنان في وقت واحد!

والأسطى حامد -في الشارع- نازل خبط في الحديد، وعَزُّوز وعليوة في الورشة المجاورة يتبادلان العزف على ألواح الصاج بالمطارق الضخمة، ومكنة خراطة في الورشة الثالثة، وبرادة في الورشة الرابعة،

---

[٥] جمال الغيطاني: أخبار الأدب، ٢٦ من مارس ٢٠٠٦.

وكلاكسات.. كلاكسات.. كلاكسات... وسيّارات تُلقِي أمام المطبعة ببوبينات ورق، كل بوبينة -من غير مبالغة- في حجم الفيل، ومع كل بوبينة تسقط على الأرض ينط مَقْعَدي لوحده على فوق من عنف الاهتزاز، ويدور رأسي في الطيّارة الكارُو التي أجلس بداخلها، وأتهيأ لربط الأحزمة لأن الطيّارة على وَشْك الوقوع، لم يتبين لي أن رأسي هو الذي وقع فعلاً، وأنني أصبْتُ بجنون الهلاوس، وأنني -أنا أيضًا- أصدر أصواتًا غريبة كالصويت ورأسي بين يدَيّ!

هذه الغرفة التي تتوافر بها كل العناصر التي تجعل أي مبدع يعتزل الكتابة، اشتهرت بأن من يقيم فيها لا بد أن يغادر دار أخبار اليوم، فقد تركها توفيق الحكيم ليعمل مديرًا لدار الكتب، وخرج منها جلال الحمامصي ليؤسس وكالة أنباء الشرق الأوسط، وغادرها كامل الشناوي ليرأس تحرير الجمهورية، وجلس فيها موسى صبري فتم منعه من الكتابة مع إجازة مفتوحة، ثم صدرت الأوامر بنقله إلى الجمهورية، ثم دخل أنيس منصور الغرفة ٥٣ وخرج منها في إجازة مفتوحة أيضًا، والإجازة المفتوحة كانت بلا مرتب أو معاش أو مكافأة، وذلك طبقًا للأوامر الصادرة من السلطات العُلْيا، فكان مصطفى أمين يدفع مرتَّب صاحب الإجازة من جيبه الخاصّ حتى بعد تأميم أخبار اليوم!

وجاء الدور على سعيد سنبل ليدخل الغرفة رقم ٥٣، فدخل يتفحصها كأنما يريد أن يستجْلي سرَّها، وهداه تفكيره إلى أن يغيِّر وضع المكتب فنقله من الحائط الشرقي المواجه للباب إلى الحائط الغربي المجاور للباب لعلَّ ذلك يكسر نحس الغرفة، وبقي سعيد سنبل في أخبار اليوم»!

وفي منتصف الستينيات جاء الدور على أحمد رجب الذي يروي ذكرياته مع غرفة العظماء بقوله: «جاء دوري لأقيم في الغرفة ٥٣، ورغم معرفتي بتاريخ الغرفة فإن عملي الدائم مع علي أمين علمني التفاؤل، بل لقد وصل تفاؤلي إلى أنني قررت إعادة المكتب إلى الوضع القديم، وجاء عمال الكهرباء والتليفونات ونقلوا الأسلاك من الحائط الغربي إلى الحائط الشرقي كما كان!

ومرَّ يومان، وذهبتُ لأقبض مرتبي فلم أجد اسمي في كشف المرتبات، وسألت صرَّاف الخزانة عن السبب فمط شفتيه علامة أنه لا يعلم، وهزَّ مدير الحسابات كتفيه علامة أنه لا يدري، وحرَّك موظف المستخدمين كفيه يمنة ويسرة علامة أنه لا يفهم، وكان حديث الثلاثة بالإشارة معي دليلاً على أن بركة الغرفة ٥٣ قد حلت على رأسي، وأنني أصبحت من المغضوب عليهم، وأن الكلام معي باللسان مكروه شرعًا!

وبدأت أبحث عن حُكَّام أخبار اليوم في ذلك الزمان، ولم أجد الضابط الصغير الذي فوضه الضابط الكبير في حكم أخبار اليوم نيابة عنه بوصفه سكرتيره، وبحثت عن الصول سكرتير الضابط الصغير الذي يتولى تصريف الأمور نيابة عنه فهو غير موجود أيضًا، وبحثت عن الشاويش ضرغام سكرتير حضرة الصول الذي يحكم في غيابه فقيل إنه يضيء اللمبة الحمراء، وبحثت عن العسكري أبو اليزيد سكرتير الشاويش ضرغام فقالوا لي إنه في صالة تحرير الأخبار يراجع المانشتات التي كتبها مصطفى أمين.

وإيمانًا بنظرية سعيد سنبل بدأت أغيِّر من وضع المكتب لتكون النافذة من خلفي، وما إن استقرَّ المكتب في وضعه الجديد حتى رنَّ جرس التليفون

ليبلغوني أن اسمي سقط سهوًا من كشف المرتبات، وعاد موظفو الإدارة يتحدثون معي باللسان بدلاً من لغة الإشارة علامة أني غير مغضوب عليه والحمد لله.

وبقيتُ في الغرفة ٥٣ وظلَّ أول ساكن للغرفة توفيق الحكيم يذكّرني في كل كتاب جديد يهديه إليّ أنني أجلس في غرفته "العزيزة" كما كان يصفها دائمًا، كأنما يطلب أن أصونها وأحرص عليها، وكان آخر الكتب التي تلقيتها من عملاق الفن والفكر كتاب "يقظة الفكر"، الذي يقول في مقدمته: "لا أريد من كتابي أن يريح القارئ، أريد أن يطوي القارئ كتابي فتبدأ متاعبه.. إن مهمّتي هي تحريك الرؤوس".

وقد حرَّك توفيق الحكيم رأسي وأنا أحملق في أجواء الغرفة ٥٣ وأتساءل: كيف لم أحظَ من هذه الغرفة بإشعاعات الفكر والفن التي تركها توفيق الحكيم في هذا المكان فأفكر مثله وأبدع مثله؟

وتَبَيَّنَ لي أن السبب هو أنني غيرت موضع مكتبي من الغرفة حيث كان يجلس توفيق الحكيم ونقلته إلى الجانب الآخر حيث كان مربط حمار الحكيم».

إبداع أحمد رجب وقدرته المذهلة على التواصل مع الناس يجعل من الصعب، بل من المستحيل أن نتصور أن غرفة العظماء -التي يخرج منها نُصّ كلمة كل يوم- قد عزلته عن البُسَطاء الذين يتحدث بلسانهم، لكن الحقيقَة أن هذه الغرفة عزلته عن المتطفلين الذين لا يحبهم، ولا يسمح لهم بالدخول إلى ساحته والجلوس معه.

فهو رجل لا يهوى الظهور، ولا تشغله الأضواء ولا تجذبه الكاميرات، بل يهوى الجلوس في المناطق التي تخفت فيها الإضاءة، ويشعر بفارق بين الكاتب والمفكر المشغول بقضايا الناس، ورجل العلاقات العامَّة المشغول بالدعاية لنفسه أمام الناس، لذلك يمكن أن تقوم بحصر عدد مَن دخلوا إلى مكتبه على مدى العشرين عامًا الماضية.

لكن في الوقت نفسه، لا تُدهشِ عندما تعرف أن الكاتب الذي تتحدث الدنيا بأسرها عن عزلته قابَل نشَّالاً في مكتبه، وروى تفاصيل ما جرى في لقائه إياه قائلاً: «رنّ موظف الاستقبال التليفون الداخلي في مكتبي ليقول لي إن نشَّالاً يطلب مقابلتي، وخطر ببالي أن الزائر ما دام لم يذكر اسمه وقدَّم نفسه بصفته نشَّالاً فلا بد أنه واحد من جيراننا الأوائل: ريشة أو نملة أو العقرب جاء -فيه الخير- لزيارتي، وتمنيت في سرِّي أن لا يكون القادم هو «تهتوهة» إذ إنه مصاب بلعثمة ينطق معها كَلمة "ازززيك" في ربع ساعة، وقلت لموظف الاستقبال دون أن أسأله عن اسم النشَّالِ إني في انتظاره، غير أن الزائر كان وجهًا جديدًا لا أعرفه، قدَّم نفسه قائلاً:

– محسوبك عبد الفضيل، نشَّال محافظ وعندي ٣٩ سنة.

– وطلباتك؟

– جئت أتوب على إيديك.

لا بد أنه قريب واحد من جيراننا القدامى وصف له الطريق إلى مكتبي، وقبل أن أسأله راح يستحلفني وهو يحتضنني ويقبِّل أكتافي أن لا أردَّه خائبًا، ثم ما لبث أن اعتدل ليقول إنه نشَّال شاطر لا يُشَقُّ له غبار وإنه

يستطيع أن يستمرَّ في المهنة التي يأكل منها «بقلاوة»، لكنه قرَّر أن يتوب على يديَّ بعد أن أوفر له عملاً شريفًا، ثم قدَّم لي محفظتي التي نشلها من جيبي الداخلي ليثبت لي أنه نشَّال ممتاز ولا يريد الحرام.

ولم يستغرق هذا كله ثواني معدودات، أخذت منه محفظتي، ووضعتها في جيبي ووجهي لا ينكر الدهشة من خفة يده، ثم سألته ماذا يتقن من أنواع الحرف فقال: "النشل"، إنه لم يتعلم حرفة في حياته منذ الصغر إلا النشل.

واقتنع إحساسي بعزم عبد الفضيل على التوبة دون مبرِّر منطقي، فاتخذت كل الإجراءات الروتينية اللازمة لعودته إلى الحياة الشريفة كرفع دعوى ردِّ الاعتبار وما إلى ذلك بوصفه من أصحاب السوابق العتاة، وما إن انتهت هذه الإجراءات حتى اتصلت تليفونيًا بالمهندس عثمان أحمد عثمان ورجوته أن يعيِّن عبد الفضيل ساعيًا أو فرَّاشًا بـ"المقاولون العرب"، ولم أقل له إنه صاحب ٣٩ سابقة نشل بل قلت له إن ظروف حياته تقتضي سرعة إلحاقه بعمل، فاستجاب المهندس عثمان أحمد عثمان مشكورًا وقال: أرسله فورًا.

بعد أسبوع سألت المهندس عثمان أحمد عثمان: ما أخبار عبد الفضيل؟

قال لي: تمام.. بيبوس إيديك!

وفي كل مرة أدعو في سرِّي أن لا يسوِّد عبد الفضيل وجهي مع الرجل الذي كفل له عملاً شريفًا.

وجاءني عبد الفضيل يقول إن ابنته قد أصيبت بشلل الأطفال فأرسلته إلى الدكتور أحمد خالد أستاذ العلاج الطبيعي بكلية طب القاهرة الذي

رفض مشكورًا أن يتقاضى أجرًا إعجابًا بتوبة عبد الفضيل حتى تمّ شفاء البنت، وبلغت الأمانة بعبد الفضيل أنه أعاد مئتي جنيه إلى إدارة المقاولون العرب كانت صرفَتها له لعلاج ابنته!

ثم جاءني عبد الفضيل ذات مرة في زيارة روتينية من زياراته لأسأله: مبسوط يا عبد الفضيل في شغلك؟ وقال لي خبرًا غريبًا جعلني أصرخ بأعلى صوتي: يا نهار أسود!

وأسرعت بالاتصال بالمهندس عثمان أحمد عثمان الذي روى ما حدث في المكالمة –في مذكراته– بقوله: اتصل بي أحمد رجب بعد فترة لكي ينبهني إلى ما له من سوابق، وفوجئ بأنني عرفت كل تفاصيل حياته، ولكن المفاجأة الكبرى كانت لأحمد رجب عندما عرف أن هذا النشّال أصبح أحد الأمناء على خزائن المقاولون يمسك بيده عشرات الألوف من الجنيهات!».

علاقة أحمد رجب بعبد الفضيل استمرّت لسنوات طويلة، فقد كان يُشعِرُ الساخر الكبير بالسعادة والفخر كُلّمَا رآه، لكن الغريب أن علاقة أحمد رجب بالنشّالين لم تقف عند عبد الفضيل، بل إنه كان يعرف عمدة النشّالين، الذي كان يعيش في عشش الترجمان المجاورة لدار أخبار اليوم، ويجلس معه ويراه وهو يقوم بشرح الطريقة التي يقوم بها «النشّال» للإيقاع بضحيته، ويروي أحمد رجب واحدة من ذكرياته مع عمدة النشّالين قائلاً: في أحد الأيام اختفت «محفظة» أحد القُرّاء فجاءني يطلب مساعدتي، فذهبت إلى العمدة الذي يسيطر على كل نشّالي مصر،

وطلبت منه أن يعيد «المحفظة» التي سرقها أحد «صبيانه»، فسألني عن رقم الأتوبيس الذي كان يركبه ووقت وجوده فيه، وبعدها بدقائق نادى صبيّه «شفتورة» ليُحضِرَ «المحفظة».

الفصل الثاني

في الخمسينيات فصلني علي أمين عشرات المرات، وأصدر قرارًا بنقلي بوَّابًا لأخبار اليوم!

مصطفى أمين

«إذا كان ضروريًا أن يُسجَن أحد ظُلمًا، فإنني مستعدٌّ أن أُسجَن بدل مصطفى أمين».

هكذا قال أحمد رجب للرئيس السادات، لكنه لم يروِ ما حدث!

موسى صبري هو الذي روى دور أحمد رجب في الإفراج عن مصطفى أمين بقوله:

«في الرابعة صباحًا، وبعد أن انتهى فرح ابنة محمود أبو وافية -زوج أخت السيدة جيهان السادات- أحطنا بالسادات: علي الجمَّال وأحمد رجب ومحسن محمد وعبد الحليم حافظ وأنا وزوجتي.. وألححنا عليه أن يفرج عن مصطفى أمين، وقال أحمد رجب: إذا كان ضروريًا أن يُسجَن أحد ظلمًا، فإنني مستعدٌّ أن أسجَن بدل مصطفى أمين.

ولم يتكلم السادات..

وتحمست السيدة جيهان.. وأيَّدَتْنا بحرارة..

وعند ظهر اليوم التالي اتصل بي السادات ليبلغني قراره بالإفراج عن مصطفى أمين وإعفائه من إجراءات الإفراج ليكون في منزله اليوم».

لم يدَّعِ أحمد رجب البطولة يومًا، ولم يسعَ خلف مجد شخصيّ مهما بلغت قمَّتَه، فقد كان أكثر الناس وفاءً لأستاذه سواء كان حيًا أو ميتًا أو في السجن، بل إنه كان أقرب إليه من أولاده -على حدِّ تعبير صفية مصطفى أمين- لكنه أراد أن يكون الحب محله القلب لا صفحات الصُّحُف.

كان مصطفى أمين يعلم مدى صدق تلميذه ونبل أخلاقه وحجم موهبته ويعتبره امتدادًا له ويقول عنه: أحمد رجب تلميذي وأنا اعتبره امتدادًا لي، ومنذ اليوم الأول الذي عرفته فيه تنبأت له بدور كبير سوف يلعبه في حياة المجتمع المصري، فقلمه ساخر، وأسلوبه جذّاب، استطاع أن يُضحك المصريين لأكثر من عشرين عامًا ويرسم الابتسامة على شفاههم، وأنا مُعجَب به لأنه يجعلني أضحك كل يوم، والشخص الذي لديه الكفاءة حينما يكون الإنسان منًّا مهمومًا، ثم يجعله يضحك، فهو بلا شك شخصية عبقرية.

ويضيف مصطفى أمين قوله: سخرية أحمد رجب أشبه بالمدفع الرشّاش، ولكن الفرق بينه وبين المدفع الرشاش أنه يجرح ولا يُسيل دمًا، فهو يحب الذين يهاجمهم ولا يحقد عليهم، ويقاتل الحكام وهم فوق الحصان، وإذا وقعوا من فوق الحصان توقف فورًا عن حربهم واشترك في تضميد جراحهم، وهو سريع الغضب سريع الرِّضا شديد الحرص على كرامته، لكنه كثير التواضُع يهوى محاربة الأقوياء وعناق الضعفاء.

وأحمد رجب لا يُضحكُ طبقة دون الأخرى، ولكنه يصنع الابتسامة على شفاه كل الطبقات.. إن كلماته المختصَرة التي تُضحكُ الشعب المصري كلّه، تحتاج إلى كفاءة كبيرة، لأنني أذكر خطابًا من سعد زغلول إلى الشيخ محمد عبده يقول فيه: «اغفر لي الإطالة.. فلا وقت عندي للاختصار»!

مصطفى أمين كان مؤمنًا بقدرات أحمد رجب الاستثنائية ويرى أن موهبته أكبر من وضعها في قالَب بعينه، لذلك يقول عنه:

إذا كتب أحمد رجب في مجلّة إسلامية فليكتب بتوقيع «أحمد رجب».

وإذا كتب في مجلّة مسيحية فليكتب بتوقيع «أحمد أغسطس».

وإذا كتب في مجلّة عبرية فليكتب بتوقيع «أحمد أيلول».

أما أحمد رجب فقد كان عند حسن ظن أستاذه، فبعد وفاته كتب يقول: مصطفى أمين هو الأب الرُّوحي الذي رعانا براعم صغيرة والأستاذ الذي علّمنا الصحافة وكنا نشعر كل يوم أننا صغار في ظلّ أستاذيته مهما أصبحنا على يديه كِبارًا، فقد رأيته في المحنة الكبرى عملاقًا بين جَلاّديه وكأنما المحنة –على هولها– لا تمسُّه، ورأيته في مأتم علي أمين هادئًا يربت على ظهورنا حتى نكفّ عن البكاء، ورأيته في بيته بعد المأتم يستسلم لبكاء طويل كطفل فقد الأبوين[٦].

[٦] صفية مصطفى أمين: رسائل مصطفى أمين من الزنزانة ٢٠٠، أخبار اليوم، ص٧

مثلما لعب أحمد رجب دورًا في الإفراج عن مصطفى أمين كان له أيضًا دور في عودة علي أمين من منفاه الاختياري، لكنه أيضًا لم يعلن عنه ولم نعرفه إلا من مذكرات موسى صبري!

فقد كانت علاقته بعلي أمين أقرب إلى علاقة ابن بأبيه، فقد كان يقضي معه ١٨ ساعة يوميًا في الأخبار، ولا يفارقه إلا في أثناء النوم، وكان «علي» يطلق عليه اسم «جاك»، وهو مدير مطعم في لندن كانت مهمته أن يقوم صاحب المطعم برفده كلما حدث شيء أغضب الزائرين، ومن هنا كانت مهمة أحمد رجب شاقة، ففي أحد الأيام طلب منه علي أمين أن يختصر مقالاً لأديبة كبيرة من ٣٠ صفحة إلى صفحة ونصف فقط، وعندما حضرت الأديبة لتشكو ما حدث لعلي أمين قام باستدعاء أحمد رجب، ووبخه وقال له: «إنت مش عارف المقال ده مين اللي كتبه؟ إنت مين عشان تختصر مقال أديبة كبيرة؟»، ثم قام برفده.

لذلك عندما قرر الفنان عبد الحليم حافظ أن يقوم بتصوير فيلم «يوم من عمري» داخل دار أخبار اليوم استعان بأحمد رجب وطلب منه أن يستفز علي أمين ليراه بصورته الصحفية، وبالفعل استفز التلميذ أستاذه، فدُهش العندليب لما رآه، وذهب إلى محمود المليجي ليعرض عليه أن يقوم بدور «علي أمين» بدلاً من حسين رياض الذي كان مرشحًا لعمل هذا الدور.

ويروي أحمد رجب ذكرياته مع علي أمين قائلاً: [في الخمسينيات فصلني علي أمين عشرات المرات، وأنزلني من نائب رئيس تحرير إلى محرر عشرات المرات، وعشرات المرات أصدر قرارًا بنقلي بوابًا لأخبار اليوم على أن يحل محلي أبو زيد البواب نائبًا لرئيس التحرير.

وقد كان أبو زيد هو الإنسان السوبرمان الذي صنعه علي أمين، ولم نكن نعرف مواهب هذا السوبرمان الأبو زيديّ إلاّ خلال ثورات علي أمين من أجل الأكمل والأفضل، فإذا لم يعجبه توضيب صفحة قال لسكرتير التحرير: «أنا أجيب أبو زيد يوضب بدالك»، وإذا أفلت خبر من مخبر: «أنا أجيب أبو زيد يشتغل بدالك»، وإذا لم تعجبه صورة: «أنا أجيب أبو زيد يصوّر بدالك»، وإذا توقفت مكنة الطباعة عن الطبع وتأخر المهندس دقائق في إدارتها: «أنا أجيب أبو زيد يدوّرها بدالك».

وعندما انضمّ إلى أسرة أخبار اليوم رسّام يعمل مع علي أمين لأول مرة لم يكن يعرف أن شطحات علي أمين –من أجل الأكمل والأجمل– كلها فشنك في فشنك، ولا بد أن تعقبها ابتسامة طفولية ولا كأن حاجة حصلت، فلمّا عرض الرّسّام رسم وتوضيب قصة العدد على علي أمين أعجبه الرسم ولكنه اعترض على طبع جزء من كلام القصّة فوق جزء من أرضية الرسم الزرقاء لأن الحروف عادةً لا تظهر فوق اللون بوضوح مما يُتعب نظر القارئ، لكن الرّسّام بدأ يناقش عليٍ أمين في مبدأ مُهمّ من المَبادئ التي أرساها علي أمين في توضيب المجلات، فصاح في الرّسّام: «ده توضيب عصر أفندينا.. اسمع، أنا أجيب أبو زيد يرسم بدالك»!

ووجدتُ الرّسّام ينتظرني في مكتبي ليخبرني أن علي أمين طلب أن يرسم أبو زيد رسوم القصّة، فلما أفهمتُه أن أبو زيد هذا هو بوّاب أخبار اليوم وليس رسّامًا في الدار كما يظنُّ، غضب الرّسّام الشابُّ وذهب يشكو علي أمين إلى مصطفى أمين، فقال له مصطفى أمين: «متزعلش، تتصور أن علي أمين لسه شاخط فيّ حالاً وقال لي أنا أجيب أبو زيد أعمله توأم بدالك»!

واصطحب مصطفى أمين الرَّسَّام إلى علي أمين، وما إن رآه بالباب حتى نهض من مكتبه واتجه نحوه يصالحه ويطبطب عليه، وبينما كان علي أمين يروّق دمه من حكاية أبو زيد اللي بيرسم أحسن منه استدعاني ليرى صورة الغلاف التي اخترتها للعدد الجديد، فنظر إلى الصورة وانخلع قلب الرَّسَّام الشابّ، فوضع كوب الليمون وهرب من المكتب لأنه غير متمرس على هذه المواقف الفشنكية بينما أمسك علي أمين بالصورة مؤكدًا أن صاحبة هذه الصورة هربانة من التجنيد وأن أبو زيد البواب أجمل منها، ثم أصدر قراره قائلاً: «شيلها من على الغلاف وحُطّ صورة أبو زيد بدالها»!

هكذا تعاظم شأن السوبرمان الأبو زيدي فاكتمل له الجمال بعد الكمال بقرار من علي أمين ولم يكن يدهشنا أن أبو زيد كان يُبدي رأيه في ما لا يعجبه من كتابتنا وهو يمط شفتيه بقرف شديد، بل كان يدهشنا حقًا أنه كان يستوقف علي أمين نفسه صاحب الدار عند البوَّابة ليعبِّر له عن رأيه في ما يكتبه أحيانًا بالإعجاب وأحيانًا بالنقد، وكان يحيِّرنا فعلاً أن علي أمين كان ينصت إليه باهتمام إذا انتقد، وذلك رغم الألفاظ الدِّبْش التي يستعملها أبو زيد وكان شيئًا له العجب أن يتحلى علي أمين بالهدوء الشديد وهو يحاول أن يتفهَّم وجهة نظر أبو زيد، وقد عزونا هدوء علي أمين إلى أنه ليس هناك أبو زيد آخر يهدِّد به أبو زيد بعبارته المأثورة: «أنا أجيب أبو زيد يقف في البوَّابة بدالك»...

لكننا ذات يوم عرفنا السبب، فقد اقترح علي أمين على أنيس منصور أن يصحب معه أبو زيد إلى السينما وأن يسجِّل تعليقات أبو زيد على فيلم «بنات اليوم» وفيلم «لواحظ»، وعرفنا أن علي أمين ينظر

إلى أبو زيد باعتباره «رجل الشارع» الذي من حقِّه أن نستمع إلى وجهة نظره في صحافة وسينما وإذاعة بلاده، وبالفعل جاءت التعليقات التي سجَّلها أنيس بلسان أبو زيد ذكية ورائعة ولمّاحة تعكس ما في أعماق الإنسان المصري البسيط من حضارة لسبعة آلاف سنة.

ثم حدث ما جعل علي أمين يكفُّ عن تهديدي بأبو زيد، أو على الأصحّ يقلل من حدَّته، إذ أرسلت إليه مذكرة عن تأخُّر الأقسام الفنية في إعداد غلاف العدد الجديد، ومع المذكرة صورة الغلاف الملوَّنة من تصوير أحمد يوسف، ونظر علي أمين إلى صورة الغلاف، فإذا بها صورة أبو زيد وعليها تعليق: «أبو زيد معبود النساء اقرأ ص٢٦»!

وضحك علي أمين واعتبرها نكتة، ورفع سماعة التليفون واتصل بي، لكنني كنت في مكتب آخر أتصل بعلي أمين منتحلاً شخصية رئيس الأقسام الفنية ومقلدًا صوته، وقلت لعلي أمين: أحمد رجب كتب فينا مذكِّرة، وده غير صحيح يا فندم لأن غلاف أبو زيد جاهز!

وسمعت صوت قذيفة رهيبة هي هبدة يد علي أمين فوق المكتب متسائلاً في استنكار: «غلاف مين؟!»، فأكدت له بهدوء أنه غلاف أبو زيد وأن أحمد رجب قال إن علي أمين لم تعجبه صورة فتاة الغلاف وأمر بوضع صورة أبو زيد على الغلاف، وتوالت قذائف علي أمين فوق المكتب وصوته يهدِّد معلنًا لرئيس الأقسام الفنية -الذي هو أنا- أنه سيُودعُه مع أحمد رجب مستشفى الأمراض العقلية، فقلت ببرود شديد وهدوء أشدّ إنه ليس هناك أي وقت لعمل غلاف جديد.. ويمشي المرة دي يا فندم غلاف أبو زيد.. والله يا فندم أبو زيد طالع شكله لطيف وحلو ولا روبرت تايلور.

عند هذا الحدّ سمعت علي أمين يضع السماعة بعنف، وبعد قليل علمت أنه يقتحم الأقسام الفنية بحثًا عن رئيسها المجنون، فأسرعت أغادر الدار إلى بيت علي أمين، إذ كنت مدعوًّا على الغداء معه!

ظرفاء عصره

رأى حافظ إبراهيم الشيخ عبد العزيز البشري في الشتاء يلبس العمامة والجبة ويغطي رأسه من البرد، فقال له حافظ: إيه ده يا شيخ عبد العزيز؟ والله كنت باحسبك واحدة ستّ.

ردّ عليه البشري: وأنا والله كنت باحسبك راجل!

هكذا كان ظرفاء مصر قبل أن يرحلوا عنًا، فكلّ واحد منهم كانت له شخصية ساخرة فريدة وأسلوب مميّز، وجاذبية خاصّة، لكننا فقدناهم واحدًا تلوَ الآخَر، ومن نَفْقِدْه لا يأت من يملأ الفراغ الذي تركه، حتى اختفت مجالس الظرفاء من حياتنا الأدبية والصحفية والفنية.

ويفسّر أحمد رجب اختفاء هذه المجالس بقوله: «الضحكة اللاّذعة لا تعيش إلاّ في جو الحريات وهي تنطلق على سجيتها دون تحفّظ أو خوف، فالظرفاء تلزمهم مجالس لقاء تنطلق فيها ضحكاتهم، ولو كان ظرفاء مصر أمثال محمد البابلي وحافظ إبراهيم والشيخ عبد العزيز البشري وُجدوا في

عصر صلاح نصر لَمّا وصلت إلينا ضحكات مجالسهم بل بالتأكيد كانت مجالسهم ستنفضّ ليُغلِق كل منهم بابه عليه خوفًا من الاعتقال».

ويضيف رجب قوله: «أذكر أن كامل الشناوي كان له مجلس ليليّ نجتمع فيه حوله، وكان إذا حبكت معه النكتة همس بها في أذن واحد من تلاميذه المخلصين، من دون أن يجرؤ على الجهر بها، ففي إحدى المرات همس لي قائلاً: "الجنيه المصري بقى زي المخدِّرات.. لا تقدر تخرج به من المطار.. وإذا أحرزت منه أي كمية يحطوك تحت الحراسة"».

أحمد رجب كان واضحًا، فالسُّخْرِيَة لا تنمو في الظلام بعكس النكتة!

فالساخر ليس مُضحكًا، والكتابة الساخرة ليست تنكيتًا بل هي كتابة جادَّة، أمَّا النكتة فلَا تزدهر إلاَّ في أكثر العصور قمعًا، لذلك كانت النكت تنتشر في الاتحاد السوفييتي خلال فترة الستينيات بشكل لا مثيل له، ومنها النكتة الشهيرة التي يرويها بريجينيف رئيس الاتحاد السوفييتي الأسبق بنفسه نقلاً عن الشعب الروسي، وتقول إن مواطنا وقف أمام المحكمة بتهمة الهتاف في الميدان الأحمر قائلاً: «يسقط بريجينيف الحمار»، فعاقبته المحكمة بسنة سجنًا لأنه هتف بسقوط بريجينيف، وبعشرين سنة سجنًا لأنه أذاع سرًّا من أسرار الدولة.

هذه هي النكتة، أمَّا السُّخْرِيَة فهي تعني الجمال عند مواجهة الحقيقة، لذلك يرى أفلاطون أن الساخر يقوم بدور «محكمة القانون» التي تُصدر أحكامها الخاصَّة بشكل مباشر وحاسم، والسُّخْرِيَة –رغم مبالغتها– تُعِيدُنا إلى أرض الواقع، فهي تُعتبر شكلاً من أشكال الفكاهة وهدفها

مهاجمة الوضع الراهن في الأخلاق والسياسة والسلوك والتفكير، حتى يتمّ تجنُّب الممارسات الخاطئة الموجودة في المجتمع.

من هنا تجد أن أحمد رجب هو ساخر مثالي، حسب التعريف الأكاديمي للسخرية، فهو لا يهدف في كتابته سوى إصلاح السياسات الخاطئة وتغييرها، لكنه ليس وحده، فهناك ساخرون آخَرون ساروا على نفس الدرب، لكن كل واحد منهم مدرسة بمفرده، ومن هؤلاء محمود السعدني الذي جمعته صداقة نادرة المثال مع أحمد رجب ليثبتا أن المثل القائل «عدوك ابن كارك» لا ينطبق على الساخرين، فقد كتب أحمد رجب بعد وفاة السعدني يقول: «فقد شارع الصحافة ابتسامته وبهجته وضحكته العريضة.. رحل محمود السعدني آخر ظرفاء مصر وأعظم كُتّابها الساخرين.. كان ساخرًا بالفطرة، فحتى مع الجلّادين في المعتقَل كان يبدِّد الصرامة عن وجوههم بكلماته العفوية التي لا يقصد بها إضحاكًا.. سوف أفتقدك كثيرًا يا محمود، وربما يكون عزائي في لقائي بكتُبك التي أهديتها إليّ بإهداء واحد لا يتغير: من الكاتب الساخر محمود السعدني إلى الكاتب الشاخر الإسكندراني أحمد رجب»!

العلاقة بين أحمد رجب ومحمود السعدني لم تكُن استثناءً، بل كانت القاعدة في التعامل بين الساخرين، فمثلما أحب رجب السعدني، أحب صلاح جاهين وكتب عنه في الخمسينيات بورتريهًا بديعًا قال فيه: «صلاح جاهين عمره في ٢٥ ديسمبر المقبل ٢٦ سنة فقط، ووزنه ١٠٩ كيلوجرامات، وهو متزوج بالسيدة سوسن الرَّسَّامة بـ"الجيل"، وله ولد عمره ٣ أشهر اسمه أحمد بهاء الدين.. فلسفته في الحياة "بكرة أجمل من

النهارده".. ومثله الأعلى الفنان شارلي شابلن، وهوايته في وقت الفراغ الأكل.. وآخر تشنيعة قالتها عنه أم كلثوم أنه «بيخسّ عَلَى بَرَّة»!

حُبّ أحمد رجب رفاقَ دربه من الساخرين لم يتوقف عند حدود الإعجاب بهم والكتابة عنهم، بل إنه طالَبَ عقب وفاة المبدع محمد عفيفي بإطلاق اسمه على أحد الشوارع، وروى هذه الواقعة بقوله: «عقب وفاة الكاتب الساخر المبدع محمد عفيفي تقدمتُ لمحافظة الجيزة بخطاب رسمي من مؤسّسة الأخبار لإطلاق اسمه على أحد الشوارع، ثم قيل لي إن الخطاب ضاع فتقدمتُ بآخر، لكن يبدو أن الإجراءات تعثرت لأنني لم أكتب الاسم الثلاثي لمحمد عفيفي، وفي ذكرى عفيفي سألت الدليل عن رقم السيد عمر عبد الآخر لأشكو له، فقال الدليل لا بد من الاسم الثلاثي لمحافظ الجيزة حتى يعطيني رقمه، ويبدو أن الاسم الثلاثي أصبح شيئًا مُهِمًّا في الحكومة لا انضباط دُونَهُ حتى إن مواطنًا كتب للضرائب عنوانه في مدينة ١٥ مايو فأرسلت المصلحة تسأله بخطاب مسجل: ١٥ مايو سنة كام؟».

لكن بقي أكثر الساخرين قربًا إلى قلبه هو والده جليل البنداري –كما يصفه دائمًا– وقال عنه: «كان جليل فنّانًا ساخرًا قادرًا على تحويل كل آلامه وكل مصائب الدنيا إلى ضحكات عريضة، حتى موته، مأتمه، جنازته، تناولها لسانه الساخر بالضحكات، فذات ليلة وقف يصوِّر لنا جنازته –كما تَخَيَّلها– بأسلوبه الجليلي المتفرد وسط عاصفة من الضحك، وطلب مني ومن وجدي قنديل أن لا نكتب عنه –إذا مات– أي كلام مقرف، وفسَّر الكلام المقرف بأنه الكلام الحزين الذي يمضي فوق السطور في لطم ونواح، وتمنى ليلتها لو أتيحت له الفرصة –بمعجزة–

ليصف جنازته بنفسه وينشرها في أخبار اليوم، فالصحف اعتادت أن تصف الجنازات وصفًا واحدًا حزينًا لا يتغير فلماذا -كما قال- لا أُسعدُ الناس بوصف ضاحك للجنازة؟ هذا هو الجديد، وأنا أحب الجديدَ! ومضى جليل يقول: الجنازة فيها "إيفيهات" تفطّس م الضحك.. فليه دايمًا نبصّ لها من زاوية الدموع؟ وما ذنب القارئ حتى أزعجه ع الصبح بكلام حزين ومقرف، أنا الذي تعودت أن أسليه كل صباح وأحاول أن ارسم ابتسامة على فمه، أليس من الأفضل أن أودّع القارئ بابتسامة وأنا أصف له جنازتي قائلاً: كانت جنازتي كبيرة ومهولة!

وقد توقعت -قبل وفاتي- أن تكون جنازتي كبيرة ومهولة بفضل عدد الدائنين الذين سيمشون ورائي أملاً في معجزة تعيدني إلى الحياة حتى يستأنفوا مطالبتي بفلوسهم!».

ويستكمل أحمد رجب حديثه عن أمير الصعاليك جليل البنداري قائلاً: «كانت الشتائم لازمة في لسانه، أو كانت أشبه بفصله أو شولة بين عبارات كلامه العادي، وكان يُغضِبُ الناسَ منه بالشتائم ثم يعتذر لهم بالشتائم أيضًا!

وأذكر أن فريد شوقي هاج وماج وحلف أيمانات الله بأنه سيرمي جليل من البلكونة وسيطبّق ضلوعه و... و... وكان جليل قد كتب أنّ هُدَى سلطان تضرب وحش الشاشة بالأطباق، الأمر الذي يهزّ صورة وحش الشاشة عند جمهور الترسو، ورحت -مع جلال معوض- أهدّئ من ثورة فريد شوقي ولكنه أصرّ على ضرب جليل عند حضوره!

وأسرعت إلى باب العمارة حتى أنصرف بجليل عند حضوره بعيدًا عن لكمات وحش الشاشة، ولكن جليل أصرَّ على الصعود، ودخل على فريد شوقي الذي نظر إليه والشرر يتطاير من عينيه، وإذا بجليل ينطق بكلمة واحدة فطس بعدها وحش الشاشة من الضحك!

وحلفت تحية كاريوكا ذات مرة أن تضربه بالشبشب، وتَعَقَّبَتْه في منزل إحدى الفنانات وجلست تنتظر حضوره... ودخل جليل، فنطق بشتيمتين استُغرقت بعدهما تحية في الضحك!

ورفع الفنانون والفنانات ٨٠ قضية ضِدّه انتهت جميعًا بالصلح بعد أن اعتذر لهم بشتائمه!

فقد انتهى الفنانون والفنانات إلى حقيقة مؤكّدة هي أن جليل البنداري هو صاحب أطول لسان وأطيب قلب!

كان أحمد رجب كُلَّمَا رأى جليل البنداري قبَّل يده، رغم أنه كان يكتب معه في نفس الصفحة وفي العمود المجاور له في جريدة الأخبار، لكن الغرور لم يتسلل يومًا إلى قلبه، ولم يعرف الحقد طريقًا إليه.

الفصل الثالث

التليفزيون يلاحقني، ويطاردني، ويضايق أسرتي، فأهاجمه دفاعًا عن النفس

مقالب شادية!

كانت صداقة مقالب!

تلك التي جمعت بين أحمد رجب والفنانة شادية، فكلاهما كان قريبًا من الآخر بدرجة تجعل من يرى من بعيد يظنُّ أنهما حبيبان في طريقهما إلى المأذون!

ففي الستينيات انطلقت شائعة تقول إن أحمد رجب هو الزوج الثالث لشادية، وصارت هذه الشائعة حديث الناس، فالجرائد تحرص على نشر تطوُّراتها، ومعرفة مدى صحتها لأن بطلَي الشائعة اثنان من المشاهير بلغا قمة مجدهما في تلك الفترة، وكان يجمع بينهما لقاء ثابت في منزل مصطفى أمين -الذي قيل أيضًا إنه تزوج شادية- حيث كان الكاتب الكبير يدعو إلى بيته يوميًا كبار نجوم الفن والصحافة من المقرَّبين منه أمثال الموسيقار محمد عبد الوهاب وزوجته نهلة القدسي، وعبد الحليم حافظ وكمال الطويل، وكامل الشناوي، وموسى صبري، وجليل البنداري، وأنيس منصور، وكمال الملاخ، وأحمد رجب وشادية.

من هنا انطلقت ماكينة الشائعات بقوة لتنتج أخبارًا تنشرها الصُّحُف حول نوع العلاقة بين الفنانة المعروفة والكاتب الساخر، لدرجة جعلت أحمد رجب يكتب مقالا في مجلّة «الجيل» تحت عنوان «أنا جوز شادية» ليردّ به على الشائعات بطريقته الساخرة قائلاً: [فجأة كدت أصبح جوز شادية، وفجأة أيضًا كدت أتحول إلى طبق فتّة لزملائي الصحفيين، وخصوصًا زميلي المهذّب المتربي المؤدّب ابن الناس «جليل البنداري» الشهير باسم «جليل الأدب».

فإذا شاهدني زملائي أراقص شادية في أيام الخطوبة والغرام الحامي، وضعوا اسمي «ملفوفًا» في باب «أخبار الناس» قائلين: مطربة سينمائية معروفة كانت ترقص مع صحفي شابّ في «بلفدير هيلتون» طوال الليل واليد باليد والخدّ على الخدّ والزواج في الغد.

فإذا تزوجتها نقلوا اسمي من باب أخبار الناس إلى الصفحة الأولى مع صورتي طبعًا.. فإذا قضينا شهر العسل نقلوا اسمي بعد تسعة أشهر من الصفحة الأولى إلى باب «مواليد الأمس» مسبوقًا باسم النبي حارسه أنبته الله نباتًا حسنًا.. فإذا أثارت شادية غيرتي وضربتها قلمين نقلوا اسمي من «مواليد الأمس» إلى حوادث أمس، فإذا أصرّت شادية على الطلاق وطلبت أنا ألف جنيه لأطلّقها نقلوا اسمي إلى صفحة الجرائم!

وهكذا ظلّ اسمي يتجول ويتنزه في طول الجريدة وعرضها لأنني جوز شادية، وقد كدت هذا الأسبوع أصبح ذلك الجوز، والحكاية في منتهى البساطة يمكن أن تحدث لك فجأة كما حدثت لي! .

هذا المقال الطريف الساخر كتبه أحمد رجب لينفي به أنه سيتزوج شادية ولخّص فيه أيضًا ما تعرضت له في زواجها الثاني بالمهندس عزيز فتحي الذي طلب منها ألف جنيه حتى يوافق على طلاقها.

لكن الشائعات لم تهدأ، وتَوَجَّه أحد الصحفيين بسؤال إلى شادية عن علاقتها بأحمد رجب فقالت: شرف ليّ إني أرتبط بصحفي لامع زي الأستاذ أحمد رجب، لكن «ده محصلش».. كل الحكاية أنه صديق مقرب أعتزُّ بصداقته مثله مثل كل القريبين منّي الذين تجمعني بهم صداقة بريئة وجميلة.

الحقيقة أن صداقة أحمد رجب وشادية كانت صداقة مقالب، على حدّ تعبير أحمد رجب، فكلاهما كان يتفنّن في صناعة «مقلب» للآخر، ففي إحدى المرات كانا يعملان في مسلسل إذاعي، فذهب إليها أحمد رجب ومعه فنان زميل، وقال لها: مش المفروض تقدمي عشاء للزميل؟!

ردّت عليه: معنديش!

قال لها: سأكلّم الحاتي بالتليفون وأحضر كبابًا.

قالت: لا، علشان تشنّع علي وتقول عشّيت الراجل في بيتي؟

قال لها: ادفعي الحساب.

ردّت عليه في حسم لتغلق كل فرصة لاستمرار المناقشة قائلة: إحنا حنشتغل ومش عاوزين أكل!

هكذا كانت علاقتهما دائمًا، علاقة تسودها خفّة الدم والألفة والمَوَدَّة، لذلك عندما تسأل أحمد رجب عن شادية يَقول: شادية التي أعرفها إنسانة هانم، سيدة متكاملة الشخصية، ست بيت، طيّبة، تحسّ أنك مع أختك أو قريبتك الحنون، وهي كفنّانة لها مكانتها كممثلة عظيمة ومطربة لها لون مميَّز وشخصية فنية آسرة وشكلها وصوتها قريبان من القلب، وشادية الإنسانة الصديقة ممتازة، لكن هذا لا يمنعني من التشنيع عليها وعمل المقالب فيها، وهي كذلك تردُّ المقلب باثنين، وآخر حوادثها معي أنها جعلت أحد الأصدقاء يعزم عددًا كبيرًا باسمي ودبّستني في تكاليف العزومة(٧).

صداقة أحمد رجب القديمة بشادية جعلته يشعر بها، ويعرف ما يدور بخاطرها، وما تريد أن تقوله قبل أن تنطق به، لذلك عندما رفضت شادية عمل مسلسل يتناول قصة حياتها، وطالب عدد كبير من الصحفيين بعدولها عن قرارها، قال: ارفعوا أيديكم عن شادية.. فالأضواء أصبحت تزعجها كثيرًا، وهي في المحراب تؤدي الصلوات وتناجي رب العالمين أن يديم عليها سلام النفس وصفاء الإيمان.. ونحن مَدينون لشادية بالكثير، فقد أعطتنا ليالي البهجة كبارًا وصغارًا بفنها الراقي الجميل، وحان الوقت لنردَّ لها الجميل فنتركها تنعم بالهدوء وسكينة المؤمنين.

لكن قصة الحب الحقيقة التي عاشها أحمد رجب ولم يعرفها أحد كانت مع فنانة استعراضية عظيمة لا تقل شهرة عن شادية كان يطلق

---

(٧) حوار في مجلة «الكواكب»، في ٢٦ أبريل ١٩٧٧.

عليها في كتابته لقب «الليدي»، وكان يحبها بدرجة غير عادية جعلته يقرِّر الارتباط بها، لكن مصطفى وعلِي أمين تدخلا ورفضا زواجهما، فغضب أحمد رجب لكن التوأمين أصَرَّا، وقام مصطفى أمين بإعطائه تذاكر سفر إلى روما ولندن وبيروت حتى يبتعد عنها، وقال له: «مش عايز منك شغل.. سافر، ولما تنساها ارجع»، وبالفعل سافر أحمد رجب إلى الخارج، وعندما عاد تَزَوَّج.

لكن بعد مرور كل هذه السنوات على قصة الحب التي لا يعلم أحد عنها شيئًا والتي رواها لي الساخر الكبير وهو يضحك ويقول: والله العظيم كانت «ليدي» وكنت أحبها رغم عصبيتها التي يلومها البعض عليها وكان نفسي «أتجوزها»، لكني سمعت كلام والدي علي أمين الذي كان يخشى أن تؤثر على مستقبلي المهني بحكم شهرتها الكبيرة كأهمّ فنانة استعراضية في هذا التوقيت، لكن بصراحة عندما وجدت المفكر إدوارد سعيد يكتب عنها منذ سنوات حزنت أني لم أكن صاحب هذا المقال البديع الذي كان بمثابة ردّ اعتبار لفنانة عظيمة.

أحمد رجب كان صديقًا لعدد كبير من الفنانين، فقد ظلّ لسنوات طويلة قريبًا من العندليب عبد الحليم حافظ، فكان يلتقيه في منزل مصطفى أمين، ويسافر معه في أثناء إجازته، لذلك يتعجب من كثرة الشائعات التي تخرج كل عام في ذكراه وتنسب إليه أفعالاً لم يفعلها وأحاديث لم يقُلْها، وتربط بينه وبين عدد كبير من النساء وتشيع أنه كان زوجًا لهن، فعلق أحمد رجب على تلك الشائعات بقوله: كان عبد الحليم حافظ يشاركنا السهرات، وكنا جهلاء لا نعرف أنه كان دون جوان على هذه الصورة التي يكتبون بها عنه الآن حتى بلغ عدد عشيقاته ٤١٢ عشيقة منذ ذكراه

الأولى، ولعلهم يذيعون في الذكرى القادمة قصة غرام الأميرة ديانا بحليم قبل زواجها، وهي التي قال فيها: «خسارة فراقك يا جارة»، وكانت ديانا تدلله باسم «ليمو» وأحيانًا «ليموزين»!

ويضيف أحمد رجب قوله: في ذكرى العندليب الأسمر أتذكر أجمل ما قيل في عبد الحليم، وذلك عندما اكتشف الشاعر الغنائي أحمد شفيق كامل أن عبد الحليم كذب عليه في موضوع ما، ولما كان الحاج أحمد رجلاً فاضلاً وسلوكه عشرة على عشرة فقد ذهب إلى كامل الشناوي يشكو في انزعاج شديد كذب عبد الحليم عليه فقال له كامل الشناوي: يا ابني عبد الحليم لا يصدق إلاّ إذا غنّى!

اقتراب أحمد رجب من النجوم جعله يضع يده على سر نجاحهم وتألقهم وشعبيتهم الطاغية، ويفسّرها بقوله: درجة انتماء النجم إلى مجتمعه تحدد حجم جماهيريته، فمثلاً ما من أحد يرى سعاد حسني إلاّ ويشعر أنها ابنته أو أخته أو ابنة أخيه، أما عبد الحليم فكان نبض الناس وأرق تعبير عن انفعالاتهم، وبغيابه يبقى لنا نعيق البوم وأصوات الغربان، وكذلك فاتن حمامة لأنها إنسانة مصرية بسيطة مثل أي واحدة من عائلاتنا، ونفس الشيء بالنسبة إلى فريد شوقي فقد نجح لأنه نموذج موجود في حارتنا، وكذلك حسن يوسف فهو نموذج للولد الشقي الموجود في كل بيت.

يمكن أن تضع صداقة أحمد رجب بالفنانين في كفة وصداقته بعبد الوهاب في كفة أخرى، فقد كان قريبًا منه بدرجة جعلته يكتب مسلسلاً للإذاعة يروي فيه قصة حياته، ليقوم عبد الوهاب بنفسه ببطولته، لكن أكثر موقف بقي في ذاكرة أحمد رجب عن علاقته بالموسيقار كان في أثناء وجودهما في الإسكندرية، ويرويه قائلاً: كنت ذات صيف بعيد أجلس

مع عبد الوهاب في شرفة منزله بالإسكندرية عندما اقترح أن نذهب إلى قصر المنتزه لأنه يريد أن يتجول في غاباته الهادئة وقت الغروب، وفي الغابة الجميلة التي لم يعُد لها وجود الآن سرت إلى جوار الموسيقار الكبير وقد انشغل تمامًا عن الحديث بتلحين أغنية «بافكر في اللي ناسيني»، وشيئًا فشيئًا علا صوته باللحن: «وأدور ليه على جرحي.. وصاحب الجرح مش فاكر، وأقول يا عيني ليه تبكي ما دام الليل مالوش آخر؟»، ثم تسلطن الإمبراطور تمامًا وانطلق يغني كأنه في حفل عامّ: «وأقول يا عيني ليه ليه ليه تبكي...» وراح يبدع في ترديدها بأشكال مختلفة، ثم فجاة قال لي: «تعال نجيب العود من العربية»، وعلى الرصيف جلست إلى جواره وهو يحتضن العود، ويردد: «عذاب الجرح يحرمني من الدنيا اللي أنا فيها.. وطول الليل يرجعني لدنيا كنت ناسيها...».

ويستكمل أحمد رجب كلامه قائلاً: لم أستمتع بالفنان العظيم مثلما استمعت به في تلك الأمسيَة، و لم يقطع متعتي إلا سائح أوربي تقدم منّا ونحن على الرصيف ودسّ في يدي «شلن»؛ افتكرنا شحّاتين!

أحمد رجب كان شاهدًا على لحظات إبداع موسيقار الأجيال، وعندما كان عبد الوهاب يستعدّ لتلحين أغنية «من غير ليه» حاول أحمد رجب أن يقنعه بالعدول عن تلحين هذه الأغنية، فقد كتبها مرسي جميل لعبد الحليم وبعدها رحل الشاعر الكبير، وكانت آخر أغنية أجرى عليها حليم بروفات أولية قبل رحيله مباشرة، لكن عبد الوهاب أصرّ على غنائها وأسند توزيعها إلى الفنان أحمد فؤاد حسن فرحل بعدها مباشرة، ثم رحل بعده الموسيقار الخالد.

ويعلّق أحمد رجب على تلك الحادثة بقوله: أي سر غامض ومخيف في هذه الأغنية الجميلة؟!

شيء من العذاب

في منتصف الستينيات ذهبت آمال فهمي رئيسة إذاعة الشرق الأوسط إلى أحمد رجب وطلبت منه أن يكتب مسلسلاً، وقالت له: أتمنى أن يوافق الموسيقار محمد عبد الوهاب أن يلعب دور البطولة في هذا المسلسل.

فوافق، وقال لها: بس موافقة عبد الوهاب عايزة ترتيب، لأنها صعبة.

وذهبا إلى الموسيقار الكبير، وقالت له: أنا عندي ٤٠ ألف إسترليني حصيلة الإعلانات، وسوف أعطيك منها ١٠ آلاف في مقابل أن تكون بطلاً لمسلسل يكتبه صديقك أحمد رجب.

فوافق.

لكن أحمد رجب لم يطمئن إلى موافقته فقال له: «أنا خايف ترجع في كلامك.. احلف لي إنك تعمل المسلسل لأني هتطلع عيني في الكتابة،

ومش هاعرف أعمل في السيناريو أي حاجة لو تراجعت لأني سوف أقوم بإعداد سيناريو يتناسب مع قدراتك الصوتية على توصيل المعاني»[٨].

فأقسم له عبد الوهاب أنه سيقوم بتمثيل هذه القصَّة التي لا يعرفها! فكانت هذه القصَّة هي «شيء من العذاب» التي قام عبد الوهاب ببطولتها في الإذاعة ونجحت نجاحًا كبيرًا، وكان أول ظهور للفنانة نيلي التي لعبت دور البطولة أمام موسيقار الأجيال.

كانت بداية غير متوقعة لكاتب ساخر، فلم يتصور أحد أن الكاتب الذي استطاع طوال سنوات عمره أن «يُضحك طوب الأرض» يستطيع -لو أراد- أن «يُبكي طوب الأرض»، من هنا كانت المفاجأة، فالكاتب الذي اشتهر بمقالبه في كبار النُّقَّاد وسخريته من المسؤولين فاجأ الجميع بقدرته على كتابة قصة «تراجيدية» رائعة، لا يوجد بها جملة واحدة تهكمية، لذلك أشاد النُّقَّاد بالقصَّة، وحقَّق المسلسل الإذاعي نجاحًا كبيرًا فاق أحلام أحمد رجب نفسه، وتمَّ نشر قصته على حلقات في مجلَّة «آخر ساعة» في فبراير ١٩٦٦.

ثم بعد ذلك تحولت القصَّة إلى فيلم -في عام ١٩٦٩- كتب له السيناريو الأديب العالمي نجيب محفوظ وأخرجه صلاح أبو سيف وشارك في بطولته يحيى شاهين مع حسن يوسف وسعاد حسني» لتخلد في ذاكرة السينما كواحد من أجمل الأعمال الفنية.

والقصَّة تدور حول فتاة اسمها «آمال» تهرب من زوج أمها بعد أن حاول اغتصابها وتضطرُّ إلى ضربه بيد الشمسية فيموت، وتلجأ إلى

---

(٨) مقابلة شخصية.

فيلاً في سيدي عبد الرحمن، فتُفاجَأ بأنها في مرسم الفنان أحمد خالد، وتقابل عنده شريف الذي يحبها، وفي النهاية وبعد سلسلة طويلة من الأحداث تعترف الفتاة بما فعلته، لكن يصدر الحكم ببراءتها إذ كانت في حالة دفاع عن النفس وتتزوج شريف.

لكن قبل أن تتحول قصة «شيء من العذاب» إلى فيلم سينمائي، كان أحمد رجب قد عرف طريقه إلى السينما، وعرفت هي أيضًا طريقها إليه، فقام بكتابة فيلم «شنبو في المصيدة» بطولة الثنائي الأشهر في السينما والمسرح في ذلك التوقيت فؤاد المهندس وشويكار وإخراج حسام الدين مصطفى، وتدور قصته حول شابّ اسمه «شنبو» موهوب في كتابة القصص لكنه يعمل موظّفًا بسيطًا للحسابات في مخبز، ويتعرف إلى صحفية شابّة تقع في حبه بعد أن يعرض عليها إنتاجه القصصي، وبعد مفارقات كوميدية يتزوجان.

الغريب أن هذا الفيلم الكوميدي تَعَرَّض لسلسلة طويلة من النقد، فبعض النُّقَّاد اعتبروه واحدًا من أفلام مرحلة ما بعد نكسة يونيو ١٩٦٧ (إنتاج ١٩٦٨) التي حاولت تغييب الناس، لكن بعد مرور أكثر من أربعين عامًا على العرض الأول لهذا الفيلم، ظهرت الحقيقة وتأكد الجميع أن هذا الفيلم تمّ تحميله أكثر ممَّا يحتمل، بعد أن استمرَّ لسنوات طويلة يتمُّ عرضه بانتظام على شاشة التليفزيون، بل إنه أصبح من الأفلام التي تحتكرها قناة فضائية بعينها لنجاحه في جذب المشاهدين.

بعد عام واحد فقط من عرض «شنبو في المصيدة» قام أحمد رجب بكتابة سيناريو لفيلم آخر هو «نُصّ ساعة جواز»، وهو فيلم كوميدي

أخرجه فطين عبد الوهاب وشارك في بطولته مجموعة من النجوم الكبار، في مقدمتهم شادية ورشدي أباظة وعادل إمام، وتدور قصته حول طبيب أسنان له مغامرات نسائية -رشدي أباظة- وعلى علاقة بـ«داليا» (صاحبة محل للزهور) -ماجدة الخطيب- يَعدُها بالزواج ثم يتراجع، فتقرِّر الانتحار، لكن ينقذها جارها عادل إمام (الذي يلعب دور الكومبارس الفاشل الذي يحلم أن يكون نجم الشاشة الأول) عندما يراها بالمصادفة من شُبَّاك شقَّته، فيقوم بإبلاغ طبيب الأسنان الذي تحبه بما حدث، وهنا يقوم بخداع صاحبة محل الزهور ويخبرها أنه متزوج بسيدة تعاني مرضًا خطيرًا، فتطلب منه التعرُّف إليها فيلجأ إلى فاطمة -شادية- الممرِّضة الموجودة في عيادته لإقناعها بتمثيل دور الزوجة لمدة «نُصّ ساعة»، وتقبل فاطمة أن تلعب هذا الدور لحبها له -رغم أنه لا يشعر بها- لكن داليا تكتشف خداعه لها، لتنتهي القصَّة بزواجه بفاطمة التي يشعر بحبها.

سنوات طويلة مرَّت بعد هذا الفيلم لم يفكر فيها أحمد رجب أن يكتب قصة جديدة للسينما، وعندما سُئل عن السبب قال: لا أعتقد أني سأضيف جديدًا، فهناك كتاب مسرحيُّون متخصصون وكتاب سينمائيون متفرغون، وكنت أمارس هذه الأعمال كهواية ليس إلاَّ، عندما يكون لديَّ الفراغ لممارستها، ولكن أمنيتي الحقيقية أن أتحول إلى كاتب أطفال.

في ذلك التوقيت أغلق أحمد رجب بابه في وجه السينما والمسرح، لكنه عاد وترك الباب «موارَبًا» عندما كتب مقالاً في نهاية السبعينيات

بعنوان «محاكمة علي بابا» تناول فيه الاختلافات الواضحة بين الأجيال، وانحاز إلى وجهة نظر الأطفال الذين أظهر طريقة تفكيرهم الجديدة، وأن لديهم إجابات جديدة لأسئلة قديمة كنا نظنُّ أن الإجابة عنها أصبحت من الثوابت، لكن أحمد رجب دافع عن الأطفال وعبَّر عنهم في مواجهة آبائهم، فعُرض عليه أن يتحول هذا المقال الأدبي -ليتحقق به حلم أحمد رجب ككاتب يريد أن يخاطب الأطفال بلغتهم وبطريقة تفكيرهم- إلى فيلم سينمائي، فوافق، وأصبحت القصَّة التي تناولها في هذا المقال فيلمًا في عام ١٩٨٤ بطولة يحيى الفخراني وإسعاد يونس، ثم تحولت بعد ذلك إلى مسرحية.

«محاكمة علي بابا» يؤكد أن كتابات أحمد رجب تحتاج إلى دارسة واعية وقراءة متأنية، لأن أغلب ما يكتبه يجمع بين عدَّة فنون، منها فن كتابة القصَّة القصيرة، وفن كتابة المقال، علاوة على فنِ الكتابة الساخرة، فقصة فيلم «محاكمة علي بابا» تطرح في الأساس سؤالاً أقرب إلى الفلسفة منه إلى السُّخْرِيَة: هل علي بابا رجل طيب أم أنه رجل حرامي بعد أن أستولى على كَنوز الناس من الأربعين حرامي؟!

ويبدو أن السينما في ذلك التوقيت انتبهت لكتابات أحمد رجب التي تجمع بين الأدب والفكر والسياسة والسُّخْرِيَة، وتحديدًا الفنانة إسعاد يونسٍ التي لعبت بطولة أكثر من عمل من تأليفه، فبعد «محاكمة علي بابا» تمَ الاستعانة بقصة أخرى له بعنوان «فوزية البرجوازية» وتمَّ تحويلها إلى فيلم بطولة صلاح السعدني وإسعاد يونس، تدور فكرته حول العلاقة بين ذوي الانتماءات السياسية المختلفة، والبُسَطاء من أصحاب المحالِّ الصغيرة، وذلك في إطار كوميدي يعتمد على استخدام المثقفِّين

مصطلحات تعبّر عن انتماءات فكرية معيَّنة مثل «اليمين المتطرف» واليساري الرجعي»، وغيرهما من المفاهيم التي لا يفهمها البُسَطاء ويتهكمون عليها.

وبعد نجاح «فوزية البرجوازية» تمّ تحويل قصته «الوزير جاي» (وكلتا القصتين من كتابه «كلام فارغ»)، الذي تحول إلى مسرحية حصدت عدة جوائز)، إلى فيلم سينمائي بطولة وحيد سيف وأحمد بدير وصلاح قابيل، وتدور قصته حول وزير سيقوم بزيارة لإحدى المصالح التابعة لوزارته، ولا يكاد الخبر يُذاع حتى يسرع المسؤولون إلى طلاء جدران الوزارة وطرقاتها وتزويد المكاتب بالأثاث وتجهيز مجموعة من الكومبارس ليهتفوا بحياة السيد الوزير ويُثْنُون على كفاءة القائمين على العمل.

لم تتوقف الأعمال المأخوذة عن قصص أحمد رجب إلى هذا الحد بل تمّ عمل أكثر من فيلم له، مثل «صاحب العمارة»، وهو فيلم تليفزيوني بطولة فؤاد المهندس ويحيى شاهين، علاوة على فيلم «المجنون» الذي تدور أحداثه حول عن رجل يحب زوجته حُبًّا جنونيًّا لدرجة جعلت الجيران يطلقون عليه لقب «المجنون»، وقد قام ببطولة الفيلم حسين الشربيني وإسعاد يونس وأبو بكر عزت، وأخرجه إبراهيم الشقنقيري، هذا بجانب مسلسل «الحب وسنينه» الذي قام ببطولته الفنان حسين فهمي.

رغم تنوُّع أعمال أحمد رجب فإنها تعرضت لظلم كبير، فقد تمّ إنتاج أغلبها في فترة الثمانينيات، وكان أغلبها أفلامًا تليفزيونية، ومن ثَمّ كانت ميزانياتها محدودة للغاية مقارنة بأفلام أخرى في نفس الفترة كانت تعاني من «فقر الفكر» لكنها كانت تجد من يروّج لها وينفق عليها بسخاء.

لكن إذا ذهبنا إلى أكثر أعمال أحمد رجب قربًا من الناس فسنجد أنه مسلسل «ناس وناس»، وهو مسلسل كوميدي تمّ فيه جمع أغلب الشخصيات التي ابتكرها أحمد رجب على مدى تاريخه، وتناول مشكلات المجتمع المصري والشخصيات الموجودة به بشكل ساخر.

«ناس وناس» هو أكثر أعمال أحمد رجب نجاحًا من حيث نسبة المشاهدة، فقد تمّ عرضه في شهر رمضان في منتصف التسعينيات عندما كانت تُعرض فيه أفضل الأعمال وأجملها وأكثرها قدرة على مخاطبة الناس داخل منازلهم، وذلك قبل أن يصبح موسمًا لعرض كل المسلسلات مهما قلّت قيمتها وقل حياؤها.

مسلسل «ناس وناس» كان يجمع عصارة فكر أحمد رجب وفلسفته الخاصّة، ورؤيته للناس، لذلك كان المسلسل يضمُّ عددا كبيرًا من النجوم، منهم وحيد سيف الذي لعب دور «كمبورة»، وأحمد راتب الذي قام بدور «الكحّيت»، ونجاح الموجي الذي أدَّى دور «جعورة»، ومحمد هنيدي الذي قام بدور هنداوي، أما «عبده مشتاق» فقد لعب دوره حسن حسني، بينما لعب حسن كامي دور «عزيز بك الأليت»، و«الكوماندا» جسّد شخصيته يوسف داود، وشارك أيضًا في بطولة هذا العمل الضخم والرائع هالة فاخر وسناء يونس وحجّاج عبد العظيم وحسين الشربيني، وكان من إخراج رائد لبيب وسيناريو عاطف بشاي.

اللهمَّ عَجِّزْ نِسَاءَنَا!

«عندما كان عندنا أحمد شوقي وحافظ إبراهيم والعقَّاد وطه حسين وتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ وسيد درويش وعبد الوهاب وأم كلثوم ويوسف وهبي والريحاني ومحمود مختار وغيرهم من العمالقة، لم يكن عندنا وزارة ثقافة، وعندما أصبح عندنا أكاديمية فنون بمعاهد مسرحية وسينمائية وكونسرفتوار تمنح الماجستير والدكتوراه، لم يعُد عندنا لا مسرح ولا سينما ولا موسيقى.. عندك تفسير؟».

لا أجد تفسيرًا واضحًا لما قاله أحمد رجب، فبالفعل اختفى المسرح من حياتنا وأصبح ذهاب أي موظف وأولاده إليه أشبه بمعجزة، فثمن التذكرة الواحدة يتجاوز راتب موظف يعمل منذ ١٠ سنوات، أما السينما فقد تراجع إنتاجها من الأعمال الجادَّة، في حين عانت الموسيقى من قلَّة المواهب، وتحوَّل أغلب الأغاني إلى مسابقات في خلع الملابس.

ما حدث للأغنية في فترة ظهور الفضائيات الغنائية كان أكبر من تجاوزه، خصوصًا من جانب كاتب ساخر يعرف دائمًا ما يدور في

أذهان الناس، لذلك كتب أحمد رجب يقول: تطورت الأغنية تطورًا هائلاً بفضل مغنّيات الفياجرا كليب حتى إن إحداهن تباهت بأنها أثارت الحصان الذي ظهر معها إثارة شديدة، ولعلّ الانقلاب الذي أحدثته هؤلاء المغنيات أن المغنية لم يعُد صوتها يصدر من فمها.

نانسي عجرم وهيفاء كانتا بداية ثورة الفيديو كليب الذي تظهر فيه المطربة كما تجلس في بيتها، ممَّا جعل أحمد رجب يقول: كتبت عن بعض المنافقين الذين يهاجمون أغاني عجرم وإليسا وهيفاء بينما هم يبحثون عنهن في القنوات الفضائية، ويدْعُون في سرِّهم «اللّهُمَّ عَجْرِمْ نِسَاءَنَا»، وتلقيت رسالة بتوقيع زوج جبان يقول: هذا الدعاء ناقص؛ يجب أن يُقال: اللّهُمَّ عَجْرِمْ نِسَاءَنَا، وَاجْعَلْ مِنْ زَوْجَاتِنَا «ذِكْرَى».

اتخذ أحمد رجب من نانسي وهيفا مادَّة يرسم بها البسمة على وجوه الناس فقال: اتخذت حملة التوعية الصحية لكلية طب المنصورة شعارًا لها هو «السلام باليد خير من قبلة بالعدوى»، وليت أهل الفن يُسْهِمُون في تحويل هذا الشعار إلى أغان فيغني مطرب «بلاش تبوسني في خدودي وكفاية السلام بإيديًّا»، ويا ريت نانسي عجرم تغني «أسلم آه.. أبوسك لا».

وعندما تمّ اختيار شاكيرا سفيرةً للنوايا الحسنة قال: أصبحت البنت الحلوة شاكيرا سفيرة النوايا الحسنة في اليونيسيف –منظمة الطفولة– ولا أعرف كيف تكون شاكيرا سفيرة النوايا الحسنة، ورقصها يشحن الرجال بكل النوايا السيئة!

أحمد رجب صاحب أذن موسيقية، ولديه ذوق رفيع في الاستماع إلى الموسيقى، فطوال فترة وجوده في مكتبه يستمع إلى الموسيقى الكلاسيكية

ويفضل مقطوعة بيانو لبيلا بارتوك(واحد من أبرز مؤلفي الموسيقى في القرن العشرين)، هذا بجانب صداقته لعمالقة الغناء في الستينيات، لذلك عندما صار كل من «هبّ ودبّ» مطربًا، علّق بقوله: هناك فرص عمل كثيرة جدًّا للخريجين، فالمجال الغنائي عندنا مفتوح، وأي حد ممكن يغني وأي حدّ يستطيع أن يبيع ألبوماته بالملايين، فقد أثبت شعبان عبد الرحيم أن الناس فقدت حاسّة السمع.

لم يتوقف حديثه عند شعبان عبد الرحيم، لكنه تحدث عن مغنٍّ آخر -لم يذكر اسمه- قائلاً: منذ ثلاث سنوات جاءني رجل يطلب عملاً، وفي المرة التالية اقترحت عليه أن يغني، فتصور أنني أسخر منه لأن صوته كمنشار الحدّاد ويكاد يكون عَورة، وبعد فترة قصيرة جاءني يهديني ألبومه الغنائي الثاني!

في ظِلِّ انتشار هذه الموجة من الغناء الهابط وأنصاف المطربين أصبح من الصعب العثور على مطرب حقيقي، وإن تمّ العثور عليه فلا نجده إلا في المناسبات، إن وجدناه! لذلك يقول أحمد رجب: لست أدري لماذا نحتفل بذكرى المصرية العظيمة أم كلثوم بينما أم كلثوم ليست في حاجة إلى ذكرى أو تذكر لأنها كل يوم ملء حياتنا وأسماعنا والوجدان، وليتنا -بدلاً من ذلك- نقدّمْ عملاً خيريًّا بإحياء ذكرى بعض المطربات والمطربين الأحياء.

وكما سخر أحمد رجب من الأغاني الرومانسية ومن المطربين الذين قاموا بغنائها، لم يترك صُنّاع الأغاني الوطنية الذين اتخذوا من هذا الأغاني وسيلة لكسب المال والتعاطف، فقال: في سنة ١٩٧٥ بدأت المملكة السعودية زراعة القمح فأنتجت خمسة آلاف طن، وارتفعت إلى

ثمانية آلاف سنة ٧٨، ثم ٢٥٠ ألفًا سنة ٨٢ ثم ٦٠٠ ألف طن سنة ٨٣، وفي عام ٨٤ حقّقَت الاكتفاء الذاتي وأنتجت مليونًا و٣٠٠ ألف طن، صدّرَت منها ٣٠٠ ألف طن إلى الخارج.. عندنا في مصر سنة ١٩٧٥ كان إنتاجنا معقولاً ووفيرًا، أمّا في سنة ٨٩ فقد ارتفع إنتاجنا السنوي إلى مليون و٦٠٠ ألف أغنية وطنية!

تركنا الوطن بكل ما فيه وتفرغنا للغناء له، وليتنا استطعنا إنتاج أغانٍ تليق به، فقد ابتلانا الله بمؤلفي أغانٍ لا عقابَ لهم سوى ما كتبه عنهم أحمد رجب عندما قال: إذا كان ليس لك نصيب من توزيعات القوى العاملة لافتقارك إلى مؤهلات، فإن أمامك مهنة لا تحتاج إلى مؤهلات أو ثقافة أو موهبة وتُدرُّ كسْبًا طوال العام، مثل تأليف الأغاني الوطنية.

مؤلّفو الأغاني الوطنية صارت لهم مناسبات، أبرزها فوز المنتخب بكأس الأمم الإفريقية، وتظهر مواهبهم أيضًا في أعياد سيناء كل عام، لذلك كتب أحمد رجب عنهم: نشط مؤلفو الأغاني الوطنية المحبوبة مع أعياد سيناء، وسيظل الراديو والتليفزيون يردّدان «سينا سينا رجعت لينا». وقد سمعت أن المؤلفين جدّدوا هذا العام فقال بعضهم: «رجعت لينا لينا رجعت سينا»، وقال آخرون: «لينا رجعت رجعت سينا»... ولأيام طويلة مقبلة سوف يغرقنا هذا الإبداع الشعري والموسيقيّ، وهو إبداع شديد التأثير في الجهاز العصبي وبخاصّة المراكز الحماسية في المخ التي تتميز بأنها سريعة الإصابة بالاكتئاب.

لا يختلف كثيرًا مؤلفو الأغاني الوطنية عندنا عن أغلب مؤلّفي المسلسلات، فكلاهما علاقته بالفن مثل علاقتنا بجُزُر القُمُر، لذلك يُدهَش أحمد رجب من عدم وجود فرص عمل للشباب، ويقول: يا أخي

حاول أن تلتحق بعمل موقَّت، فهناك مجالات كثيرة لمن يبحث ويسعى، وحتى لو كنت عديم المؤهّلات في بلدنا ممكن أن تؤلف مسلسلات أو ترشّح نفسك لمجلس الشعب.

لم يكتفِ أحمد رجب بما قاله، فعندما سأله قارئ لماذا ننفرد دون العالم كله بظهور شخصية العبيط في المسلسلات، أجاب: البعض يا سيدي يرى أن ظهور العبيط ضروري جدًا في المسلسلات، إذ هو يردّد كلامًا فيه مغزى ما يريد أن يقوله المؤلّف، لكن في مسلسلات كثيرة لا يَظهَر العبيطُ اكتفاءً بالمؤلّف!

ويكشف أحمد رجب السبب في قلّة المواهب بين مؤلّفي المسلسلات بقوله: لا بد أن نلتمس العذر للمشرفين على التليفزيون في بلادنا لأنهم لا يملكون أدوات تحقيق النجاحٍ المنشود، فالقانون البريطاني مثلاً –بعكس القانون عندنا– يشترط في مؤلّف الدراما معرفة القراءة والكتابة!

لم يسخر أحمد رجب من المؤلّف وحده لكنه سخر أيضًا من المخرج بقوله: تقول السيدة بثينة الجريتلي إن الملابس في المسلسلات التاريخية فوضى، لأن المشهد الواحد تظهر فيه ملابس تنتمي إلى عصور مختلفة.. يبدو يا دكتورة أنك متخصصة، فهم يعتمدون على جهلنا، وملاحظتك هي أرحم بكثير ممّا كان يحدث في الستينيات إذ ظهر واحد من الكفار بملابس فخمة وساعة رولكس في يده، وقد ردّ المخرج على ما كتبته بأنني جاهل وأن الساعة أوميجا وليست رولكس.

المسرح لم يفلت من يد الساخر الكبير!

فقد طلب من بعض أصدقائه من المخرجين أن لا يقوموا بدعوته لمشاهدة المسرحيات الخاصّة بهم، وبرَّر ذلك بقوله: عيب الجلوس في المسرح أنك لا تستطيع أن تمدّ يدك وتحوّل المفتاح إلى قناة أخرى!

ما حدث للمسرح الخاصّ من انحدار جعل أحمد رجب يقول: سمعت أن صاحب كباريه رفع قضية على ناقد فني لأنه كتب أن مسارح القطاع الخاصّ أصبحت كباريهات.. وطلب صاحب الكباريه تعويضًا ضخمًا عن هذه الإهانة.

انتقاد أحمد رجب المسرحَ وما يحدث فيه لا يعني أنه يهاجم كل من يقفون على خشبته، وتحديدًا النجوم الكبار أصحاب الأعمال الجادَّة والرائعة، لذلك يقول: سعدت كثيرًا بتكريم الفنان الكبير سمير خفاجي أحد أبرز أعمدة المسرح المعاصر، وقد تَشَعَّبَ الحديث بيني وبينه ذات مرَّة عن الفنّ الضاحك وسألني من الذي يُضحكك، وقلت له يُضحكني فؤاد المهندس وعادل إمام ومحمد صبحي وسمير غانم، ولكن الذي يُضحكني أكثر من هؤلاء الأربعة هو وزير الطوابير والدَّنْدُرْمة!

لا أمتلك مِنَشّة!

إذا أردت أن تعرف تاريخ التليفزيون في مصر فأمامك أحد طريقين: الأول أن تذهب إلى أرشيف التليفزيون ولن تصل إلى شيء، لأن أغلب موادّه إما تمّت سرقتها وإما تمّ بيعها، أما الطريق الثاني فهو أن تقرأ ما كتبه أحمد رجب عن التليفزيون على مدى خمسين عامًا، وهذا هو الطريق الأسهل والأفضل والأجمل.

فسخرية أحمد رجب من التليفزيون تُعتبر تأريخًا لهذا الجهاز، رغم أنه لم يظهر على شاشاته منذ نشأته في ٢١ يوليو ١٩٦٠ حتى الآن سوى مرة واحدة فقط مع الإعلامي طارق حبيب، ولم تستطع الفضائيات -على كثرتها- إغراءه بالظهور فيها، لدرجة أن إحدى الفضائيات عرضت عليه مبلغا ماليًا ضخمًا للظهور على شاشتها لمدة ساعة واحدة فقط لكنه رفض، وعندما سُئل عن سرّ امتناعه عن الظهور في التليفزيون قال: لست ممنوعًا من الظهور في التليفزيون، فلا تظلموا أحدًا لأن هذا اختياري، والسبب في عدم ظهوري في التليفزيون هو أنني لا أمتلك مِنَشّة أهش بها ذبابة التليفزيون!

التليفزيون بالنسبة إلى أحمد رجب هو المُلْهِمُ الذي يحرّك حاسّة الساخر بداخله، فكل برنامج ساذج كان هدفه الرئيسي جعل المشاهد يصاب بالتخلف العقلي شاهده وكتب عنه قائلاً: نحن لا نريد أن نظلم التليفزيون فنكتفي بما يشكو منه الناس من ملل وكآبة، بل يجب أن نقول ما للتليفزيون وما عليه، وقد سمعت من مصدر ثقة أن خبيرًا أجنبيًا درس برامج التليفزيون عندنا وانتهى إلى أنها تحمل كل المواصفات الناجحة للبرامج التي تُبَثّ للمتخلفين عقليًا!

توجَد ثوابت لم يتخلَّ عنها التليفزيون لسنوات طويلة، منها الإصرار على إذاعة أفلام بعينها لأكثر من مرة في مُدَّة قصيرة، ومن أجلها كتب أحمد رجب يقول: إن إذاعة الفيلم القديم أكثر من عشر مرات في السنة ترجع إلى أن الجهاز المركزي للمحاسبات هو الذي يشترط إذاعة واستغلال الفيلم إلى أقصى حدٍّ ممكن ما دام التليفزيون يدفع ثمن استغلاله خلال فترة محدَّدة، ويقولون إن جهاز المحاسبات يختار عيِّنات عشوائية من المشاهدين فيقوم المشاهد بـ«تسميع» الفيلم لمندوب الجهاز، وقد لفت الجهاز المركزي نظر التليفزيون إلى أن أحد المشاهدين فشل في «تسميع» الجزء الأخير من فيلم «بين الأطلال» ممَّا يستوجب تكرار عرضه!

قبل أن ندخل عصر القنوات الفضائية كانت تمثيلية السهرة واحدة من ثوابت التليفزيون التي لم تتغير لسنوات طويلة، وكانت هذه التمثيلية أشبه بعقاب للمشاهدين كي يناموا مبكرًا، ومن هنا فكر أحمد رجب أن يقوم بتكوين رابطة يطلق عليها اسم «رابطة مكافحة تمثيلية السهرة»، وكتب عنها يقول: «تعلن الرابطة عن فتح باب التطوع للتدريب على أعمال الدفاع المدني في أثناء غارة التمثيلية، بإلقاء الألحفة والبطاطين فوق التليفزيون خلال الغارة، ونقل الأطفال والمرضى والعَجَزة من أمام

الشاشة وتوعية المواطنين بعدم لمس أي جهاز تليفزيون لأنه قد يكون من الشِّرَاك الخداعية.

هذا وقد أرسلت الرابطة إلى لجنة حقوق الإنسان سجلاً مصوَّرًا للعدوان الأسبوعي على المشاهدين الآمنين، وقد تَضَمَّن هذا السجل صور الأسرة المنكوبة التي داهمت التمثيلية أفرادها الثمانية وهم جلوس أمام التليفزيون فماتوا متأثرين باسفسكيا التمثيلية، وتنتهز الرابطة هذه الفرصة لتفنِّد مزاعم التليفزيون للصليب الأحمر الدولي بأننا نقوم بتعذيب الأسرى من مخرجي تمثيلية السهرة بحبسهم في غرفة مُغلَقة لمشاهدة تمثيلية السهرة، فلسنا على هذه الصورة البشعة من الوحشية والبربرية.

إن الأسرى من المخرجين يَلْقَوْن معاملة حسنة، وليست هذه الافتراءات جديدة على التليفزيون الذي استنفدنا معه كل الوسائل السلمية، فإزاء إصراره على عرض تمثيلية السهرة اقترحنا أن يوضع بين الشاشة والمشاهدين قُوَّات دولية، لكنه رفض، وأمام هذا التصعيد العدواني بدأت منظمة "الثلاثاء الأسود" نشاطها بإنذار المخرجين وأعضاء لجنة النصوص باختطافهم واحتجازهم رهائن ما لم يوقفوا عدوانهم على المشاهدين الآمنين، كما تقوم الرابطة بنشاطها الاجتماعي والإنساني بتوزيع أكياس الحلوى والهدايا على ضحايا التمثيلية بمستشفى المشاهدين المركزي، كما تحتفل في الأسبوع المقبل بإزاحة الستار عن النصب التذكاري للمشاهد المجهول، والله ولي التوفيق».

لم تكُن تمثيلية السهرة وحدها هي التي تهاجم المشاهدين، فأغلب السهرات كان يدعو المشاهدين إلى التخلص من جهاز التليفزيون، لذلك كتب أحمد رجب يقول: مَن الذي يضع برنامج سهرات التليفزيون؟ مَن

الذي يختار هذه الأفلام التي يستعيرها من أرشيف الأنتيكخانة؟ ولماذا الإصرار على قرف الناس في عيشتهم بعد يوم حافل بنشرات الأخبار والتوترات المعيشية وأعصاب فوق الجلد؟ ولماذا لا يتمُّ تعيين رئيس للتليفزيون؟ وإذا كان هذا الرئيس موجودًا.. فأين لجنة حقوق الإنسان؟!

لكن الغريب أن إحدى الدول طلبت شراء برنامج يتم عرضه على شاشة التليفزيون المصري، ويومها علق أحمد رجب بقوله: دهشة بالغة أصابت الكثيرين عندما قرؤوا أن بعض المحطات التليفزيونية اشترت برنامج «سواريه»، وهؤلاء الكثيرون لا يعرفون أن البلد الذي اشترى البرنامج يخصِّص ساعات إرسال معيَّنة موجهة إلى السجون كجزء من العقوبة.

لم يكتفِ أحمد رجب بهذا التعليق على مَن فكَّروا في شراء برنامج «سواريه»، بل إنه قال: هناك مناصب لا يُعلَن عن أسماء شاغليها لدواعي الأمن وعدم تعرُّضهم للخطر، ومن بين هؤلاء الرجل الذي يضع للناس برامج التليفزيون.

قائمة انتقادات أحمد رجب للتليفزيون طويلة، لكن أبرز انتقاد كان حريصًا على تأكيده دائمًا هو ما قاله للمواطن مختار الشامي بالإسماعيلية، الذي سأله عن سبب ازدياد نسبة الإصابة بالتخلف العقلي من واقع الإحصاءات المنشورة.. فأجابه: لستُ أعرف السبب على وجه التحديد، لكن من الإنصاف أن نقول إن التخلُّف العقلي كان معروفًا في مصر قبل دخول التليفزيون!

الطريف أن من أكثر البرامج التي كان يحرص أحمد رجب على مشاهدتها هو برنامج «البرلمان الصغير» لأنه كان يرى فيه نموذجًا للبرنامج

الجيِّد وللبرلمان الحقيقي، لكن باستثناء هذا البرنامج كان ينتقد كل برامج الأطفال، ويصف شعور الأطفال في أثناء مشاهدتها بقوله: جلست مع بعض الأطفال أجاملهم بمشاهدة برنامج الأطفال في التليفزيون، فاتضح لي أنهم هم الذين يجاملونني في الفرجة على هذه البلاهات، إذ كانوا يتغامزون وأنا اصطنع الضحك على ما يجرى فوق الشاشة من سذاجة وتخلف عقلي!

أحمد رجب متابع جيد لمَا يقدمه التليفزيون البريطاني من برامج ومسلسلات تُسْهم في الارتقاء بمستوى المشاهد، لذلك فهو يقارن بينه وبين التليفزيون في بلادنا قائلاً: عندما تجلس أمام التليفزيون البريطاني تجد إنتاجا فكريًا متميزًا تقدِّمه مجموعة تليفزيونيين على درجة عالية من الثقافة والقدرة على الاستمالة والوصول إلى عقلك وقلبك، الأمر الذي يدفعك إلى المقارنة بالتليفزيون المصري بما فيه من فكر متواضع وساذج، لكنك لن تلبث أن تكتشف أن المقارنة غير عادلة من جوانب متعددة، خذ على سبيل المثال أصل الفكرة من وجود التليفزيون، ففي بريطانيا نجحت جمعية رعاية المسجونين في مساعيها فأدخلت التليفزيون إلى السجون للترفيه والتثقيف، بينما اعترضت جمعيات رعاية المساجين في بلادنا على إدخال التليفزيون في السجون لاعتباره عقوبة إضافية لم ينصّ عليها حكم المحكمة.

كتابات أحمد رجب عن التليفزيون رصدت كل التطوُّرات التي حدثت على مدى تاريخه واهتمَّت بكل تفاصيله وبالعاملين داخله من مذيعين ومذيعات، مرورًا بالضيوف والديكورات ونوعية البرامج والمسلسلات والأفكار المقدَّمة وطرق تناولها، لذلك بعد ظهور القنوات الفضائية العربية وتصدُّرها المشهدَ الإعلاميَّ كتب يقول: التليفزيون المصري هو

الرائد وأستاذ القنوات الفضائية في المنطقة وكل التليفزيونات العربية تلاميذه، وندعو الله أن يرتفع التليفزيون المصري إلى مستوى تلاميذه.

سخرية أحمد رجب الدائمة من التليفزيون تجعلنا نتساءل: لماذا يهاجم التليفزيون بهذه القسوة؟ والجواب -كما قاله في حواره مع مجلة «الكواكب» في إبريل ١٩٧٧-: التليفزيون يلاحقني ويطاردني ويضايق أسرتي، فأهاجمه دفاعًا عن النفس!

الحب وسنينه

«عندما يسافر الخوف في الشرايين، ويصبح أمن النفس أمنية بعيدة، وتنطلق من الأعماق أصوات استغاثة لا يسمعها أحد.. فإنها هي وحدها التي تسمعها.. قلعة الأمان التي أحتمي بها من المجهول...

إليها..

أعزّ الناس، أمس، واليوم، وإلى الأبد...».

عصمت فخري.. المرأة التي سكنت قلب أحمد رجب ولم تغادره حتى بعد أن غادرت الدنيا، ومن أجلها كتب هذه الكلمات.

فلم تكُن زوجة عادية، بل كانت استثناءً غير قابل للتّكرار، فبمجرّد أن وقعت عينه على عينيها، رأى فيها صورة المُلهِمَة التي كان قلبه فارغا في انتظارها، وبعد أن تحدّث معها قرّر أن تصبح رفيقة دربه، وأن يضع بها كلمة النهاية في حياة العزوبية، ويتخلص من عيشة المغترب التي عاشها على مدى تسع سنوات في القاهرة بعد أن جاء من الإسكندرية.

أحمد رجب كان زوجًا مثاليًا، فهو لا يهوى السهر، ولا يميل إلى حياة النجوم، فإذا لم تجده في عمله، لا بد أن يكون بجوار زوجته التي لم يحب سواها، وهو يرى أن الحب مرض وراثي، فيه أوجاع كثيرة من الأمراض التي تصيب الإنسان، ففيه من أمراض القلب سرعة النبض والخفقان، وفيه من أمراض العقل عجز المريض عن التكيُّف والتقدير السليم للواقع الخارجي، وفيه من الاكتئاب فقدان الشهيَّة، وفيه من السعال أن العاشق لا يستطيع كتمانه، وفيه من مَرض فقدان الذاكرة أن الإنسان يصحو ذات صباح فلا يذكر ولا يدري كيفَ ومتى ولماذا تزوج!

لكن الحقيقة أن أحمد رجب لم يسأل نفسه هذا السؤال و لم ينشغل يومًا عن نصفِه الآخر منذ أن عرفها، وارتبط بها في يوليو عام ١٩٦١، بل إنه لم يفكر في إهداء كتبه إلى أحد سواها رغم كثرة القريبين منه، ومثلما عرفناه كاتبًا استثنائيًا، فهو زوج استثنائيٌّ كذلك، فهو يرى أن الرجل أكثر حاجة إلى المرأة، ويقول إنها ضرورة نفسية وعاطفية، لأن الرجل يعتمد عليها في كل مراحل حياته.

الحياة الخاصَّة لأحمد رجب مكتوب عليها «ممنوع الاقتراب مهما كانت الأسباب»، فزوجته لم يَرَها سوى أقرب الناس إليه حتى فارقت الحياة في يناير ١٩٩٢، يومها كانت المرة الأولى التي يكتب فيها عنها حين قال: رحِلت عصمت شريكة حياتي وكِفاحي ورفيقة العمر التي كانت تحوِّل تعثري إلى نجاح ويأسي إلى أمل وعلَّمتني بضحكتها الساخرة أسلوبًا فذًا في معاملة الحياة.. ارحمها كثيرًا يا ربِّ.. فقد كانت رحمة حياتي.

رحلت السيدة العظيمة عصمت فخري عن الدنيا لكنها لم ترحل أبدًا عن قلب أحمد رجب، الرجل الذي لا مثيل لوفائه وإخلاصه.

حُبُّ أحمد رجب زوجتَه انعكس على عمله، وارتباطه بها جعله يكتب عددا كبيرًا من كتبه عن المرأة، فكتب «الحب وسنينه» و«ضربة في قلبك» و«توتة توتة» و«نهارك سعيد» و«الحب هو»، لكن لم يقف الحب حائلاً أمام قدراته كساخر، فقد كتب يقول: الزواج كورقة اليانصيب، مع فارق صغير هو أن ورقة اليانصيب تكسب أحيانًا.

المرأة عند أحمد رجب ليست ذلك الكائن الضعيف الذي يتمُّ تصويره طوال الوقت، فهو يرى أنها كفيلة بتغيير طباع الرجل، وأنها تملك القدرة على الصبر والنفَس الطويل لتنفيذ ما تريد، لذلك كتب معلِّقًا على ظاهرة هرب الأزواج من البيوت بقوله: في جلسة واحدة لمحكمة القاهرة للأحوال الشخصية تمّ الحكم بطلاق عشرين زوجة من أزواجهن الهاربين، وكانت الزوجات سعيدات بهذه الأحكام، ويُروَى في ذلك أن زوجة ذهبت إلى مركز المطافي للإبلاغ عن غياب زوجها، فلمّا نصحوها بالتوجُّه إلى قسم الشرطة قالت إن زوجها غاب عن البيت قبل ذلك وأبلغت الشرطة فعثروا عليه!

صورة المرأة القوية كانت حاضرة دائمًا في كتابات أحمد رجب، فهو ضدّ أعداء المرأة، وضد أي واحد يقول إن المرأة شرٌّ محتوم، أو إغراء لا مفرَّ منه، أو مصيبة مرغوب فيها، أو مرض مستحَبٌّ، ويرى أن كل هذا تشنيع، وهذا التشنيع -وغيره- صنعه ضعف الرجل أمام المرأة، لأن الضعفاء لا يملكون إلاّ الشتائم والتشنيعات.. والحقيقة التي يجب الاعتراف بها أن المرأة هي الأستاذ والرجل هو التلميذ، المرأة هي الأقوى والرجل هو الأهبل، على حدِّ تعبيره.

لذلك يطالب أحمد رجب الرجال بأن يستريحوا ويعطوا الفرصة للمرأة لتحكم العالَم، بعد أن أصبحت أكثر عنفًا من الرجال، وأصبح الحب يمتزج بالخصومة، فقد أثبتت الدراسات أن اختفاء كل من المرأة والرجل من حياة الآخر يسبِّب الاضطراب النفسي، كما أن ظهور كل منهما في حياة الآخر قد يسبِّب الجنون!

رؤية أحمد رجب الساخرة للحب والزواج تُخفي خلفها نظرة ثاقبة للواقع، فعندما سُئل عن رأيه في عمل المرأة قال: نحن مقدِّرون للمرأة فضلها في خروجها للعمل لتشارك زوجها أعباء الحياة الاقتصادية، ولكن بحساب المكسب في خروج المرأة للعمل وبحساب الخسارة سنجد أن الخسارة أكبر من المكسب، فوجود المرأة في العمل ليس إضافة بل عبء وعمالة زائدة وبطالة مقنَّعة، وتتقاضى راتبًا أسمِّيه معاشًا لا تستحقُّه لأنها تشغل وقت العمل بشغل التريكو وتقميع البامية، ولا أنكر أن هذا يتساوى مع الموظفين الذي يشربون القهوة ويحلُّون الكلمات المتقاطعة، لكن إذا نظرنا إلى مرتَّب المرأة فهو لا يكفي راتب الشغَّالة، هذا بجانب أن التربية انعدمت نتيجة غياب الأب والأمّ، ونحن عندما نقول ذلك يقولون: «رجعيُّون يريدون العودة لعصر الحريم»، وهذا غير صحيح لأننا عصريُّون، والعصرية تعني أساسًا أن نكون على مستوى العصر وما يطلبه منَّا، وأن تنشأ لدينا أجيال على أكبر قدر ممكن من التربية وتحمُّل المسؤولية، وهذه المهمَّة لن ينجح أحد فيها سوى المرأة، خصوصًا بعد أن انفصلت التربية عن التعليم لأسباب لم يُعلَن عنها[٩].

---

[٩] إبراهيم عبد العزيز: رحلة في عقول مصرية، الهيئة العامَّة للكتاب، ص٦٦٧.

جرأة أحمد رجب في طرح آرائه تجعله دائمًا حالة متفردة، فهو يرى بعين الفيلسوف، لكنه يضع الدواء برؤية الطبيب المعالج، فمثلما فرَّق بين أهمية عمل المرأة ونتائج خروجها لهذا العمل، فرَّق بين الحب والزواج حين قال: [إن تسعة وتسعين في المئة من خناقات الحب سببها الغيرة، وتسعة وتسعين من خناقات الزواج سببها الفلوس، وذلك لأن الحب يرفع دائمًا شعار «بلا مقابل»، فالإنسان يحب أحيانًا من طرف واحد بلا مقابل: حديقة عامَّة أو شاطئ بحر أو ضفة نهر، لكنه لا يستطيع أن يتزوجها إلاَّ في مسكن بالإيجار أو التمليك!

والحب دائمًا يحلِّق في السماء، والزواج له بيت لصيق بالأرض، ولأن الزواج له بيت فيه أبواب ونوافذ، فإن المثل الإنجليزي يقول: «إذا دخل الفقر من الباب قفز الحب من النافذة».. والحب غير مسؤول، لأن الحب دائمًا نشوانٌ يهذي، أمَّا في الزواج فالكلام محسوب وخالٍ من أي هذَيان، ففي الحب بصلة المحب خروف، وفي الزواج بصلة المحب بصلة حقيقية، وإذا استمرَّ يطعم زوجته هذه البصلة، فسوف يدفعها دفعًا إلى أن تفتِّش في قانون الأحوال الشخصية عمَّا ورد بشأن هذه البصلة!

الفصل الرابع

في الأرض زنادقةٌ وعَبَدة أوثان وعَبَدة بقر وعَبَدَة نار وعَبَدَة بوذا وكُفَّار على كل لون، يعني -وأستغفر الله العظيم- لو أجرينا استفتاءً على الله سبحانه وتعالى فلن يحصل على ٩٩٪.

رئيس تحت الأرض!

طلب مصطفى أمين من الرئيس السادات أن يتولى أحمد رجب رئاسة تحرير مجلة «آخر ساعة»، فرفض، وقال له: مينفعش يا مصطفى لأنه مابيسمعش الكلام!

والواقع أن أحمد رجب يسمع كلام القارئ البسيط، ولا يسمع كلام الحكام العظام، ويقبّل يد العجوز الغلبان ويبارز الوزير الخطير.

هذا هو سرُّ بقاء أحمد رجب على مدى كل هذه السنوات في قلوب البُسَطاء، فهو رجل لا يعرف النفاقُ طريقًا إلى قلبه أو قلمه.

فعندما كانت المناهج الدراسية تستبعد ذكر الرئيس الراحل محمد نجيب كأول رئيس لمصر دافع عنه بقوّة رغم أنه كان مطرودًا من السلطة ويعيش محدَّد الإقامة في منزله بالمرج، وقتها كتب يقول: الكتب المدرسية لتاريخ مصر المعاصر تحمل الكثير من المتناقضات على مدى أعوام طويلة مضت، فهي ترفع وتخفض من شأن زعماء مصر وقادتها حسب الهوى والموجة السائدة، حتى أصبحت هذه الكتب تجسيمًا لحكاية المساجين الثلاثة

الذين سألهم مأمور السجن عن سبب سجنهم، فقال الأول: «أنا هتفت يحيا محمد نجيب»، وقال الثاني: «أنا هتفت يسقط محمد نجيب»، وقال الثالث: «أنا محمد نجيب نفسه». وإذا كنا قد فشلنا في كتابة تاريخنا فليتنا نقتدي بالأهلي والزمالك ونعهد إلى حكم مالطي بكتابة تاريخ مصر.

مثلما دافع أحمد رجب عن محمد نجيب وهو خارج السلطة دافع أيضًا عن الرئيس جمال عبد الناصر بعد وفاته، وامتدحه ميتًا، رغم أنه لم يمتدحه حيًّا، بل كان مختلفًا معه ورافضًا لبعض مواقفه، ومعترضًا على سجن أستاذه مصطفى أمين في عهده، لكنه حين مات نسي كل شيء وتذكر أنه كان القائد، وكتب يقول: «يا ربِّ.. يا رحيمًا باليتامى في ليالي الضياع.. ارحم يتيمًا فقد أغلى الناس وتقطعت أعزُّ صلاته.

رحمتك يا رب.. نفسي تنزف العذاب، ومدامعي تحرقت، ودموعي تنفطر عليه وجدًا ولَهْفًا في ليل الأسى الأسود.

يا ربِّ أعرف أن دموعي لن تستردَّه، فأبدًا ما استرَدَّ الدمعُ ماضيًا، ولا ردَّ قدرًا آتيًا، وإني لَمؤمنٌ بك يا ربِّ.. أعرف أن الدنيا إلى شتات، وأن كل حيٍّ إلى ممات، ولكن كارثتي كبيرة.. كبيرة.. فالرجل كان –لي ولإخوتي– هو دنيانا.. كل دنيانا.

يا ربِّ.. قف إلى جواري في لحظة اختناق مروِّعة وأنا أراه يغيب عني ويبتعد..

يا ربِّ.. يا صانع الصبر الجميل.. إليك أتوسل: صبرًا يا ربِّ.. كثيرًا من الصبر.. كثيرًا من التأسّي لنفس ضاعت في متاهة الأحزان، لا تملك إلا الزفرة والحسرة ومُرَّ النحيب.

يا ربِّ.. يا رحيمًا باليتامى في ليل الضياع.. خذ بيدي.. تَرَفَّقْ بي يا ربِّ وتَلَطَّفْ، وإن كنتَ ترى مني إيمانا جديرًا بالفجيعة، فإني يا ربِّ بالصبر أجدَر.

صلواتي إليك أتوسل بالدموع: صبرًا يا ربِّ.. كثيرًا من الصبر.. كثيرًا من الصبر».

هكذا كانت علاقة أحمد رجب بالرؤساء دائمًا، نادرًا ما يُشيدُ بهم، وغالبًا ما يحمل هموم الناس إليهم، فقد عاش حياته لا يطمع في منصب ولم يجلس على كرسي رئاسة التحرير في عهد أي رئيس لأنهم جميعًا يعرفون أنه لا يسمع كلام أحد ولا ينصت إلا إلى صوت ضميره الشاهد الأصدق على كل العصور.

ففي كل عصر لم يلتفت إلى ذهب الحاكم أو عصاه، بل كان ما يشغله أن يكون نبضًا للناس، ففي عهد الرئيس عبد الناصر كان يكتب عن مشكلات الناس ومعاناتهم اليومية ويرصد ما يحدث بداخل المصالح الحكومية، ويعلق على الأحداث، مثلما كتب يقول في أغسطس ١٩٦٨: أعلنَت بلدية القاهرة أنها في حاجة إلى ١١ ألف كنَّاس لتنظيف شوارع العاصمة، وهو عدد مهول يدل على أن البلدية ليس فيها كنَّاس واحد! ألف تهنئة للبلدية أنها سمعت عن ذلك الاختراع الجديد المدهش الذي اسمه «الكنَّاس»!

أجمل ما في كتابات أحمد رجب أن صلاحيتها للنشر لا تنتهي أبدًا، فقد كتب في الستينيات يقول: إذا كان الطبيب -أو المهندس- المتخرج في جامعة القاهرة يتساوى في المرتب -بعد التخرُّج- مع خرِّيج جامعات

الإسكندرية وأسيوط وعين شمس.. فما الحكمة الفلسفية العُليا من توزيع الطلبة على الجامعات حسب المجموع لا حسب المجموع الجغرافي؟! وإذا كان غير صحيح أن هناك جامعة خيار تطلب مجموعا كبيرًا وجامعة فاقوس تطلب مجموعًا أقلّ، فما الحكمة العُليا من شحططة طالب فقير ليعيش في أسيوط بعيدًا عن أهله في الإسكندرية فيزيد عبء نفقاته على الأب الفقير؟! عندكم حل لهذه الفزّورة الفلسفية العُليا!

الغريب أن أحدًا لم يُجبْ عن هذا السؤال، ولم تُحَلّ هذه الأزمة، ولم يتمّ معرفة صاحب هذه الفلسفة العُليا رغم مرور أكثر من أربعين عامًا على النشر!

انتقل أحمد رجب في عصر الرئيس السادات إلى مرحلة أخرى من الإبداع، فقد بدأ يسخر من الحكام في الكاريكاتير، فرسم الرئيس السادات، وكان بعض الرسوم لا يعجبه، لكنه كان يعرف شخصية أحمد رجب وأنه لا يمكن التدخل في ما يكتبه، فكان يلجأ إلى مصطفى أمين ليتحدث معه، خصوصًا أن بعض رؤساء الدول كانوا يعترضون على الرسومات ويطالبون بوقفها.

وقد حدث ذلك عندما اعترض أحد رؤساء الدول على كاريكاتير له، وطلب من الرئيس السادات أن يَقفَهُ، لكن السادات فضّل أن يبلغ مصطفى أمين بما حدث ليتفق مع أحمد رجب أن يتوقف فقط عن رسم جزئية معيّنة في الكاريكاتير، وتم ذلك بالفعل، لكن الغريب أن هذه الشخصية طلبت مقابلة أحمد رجب ومصطفى حسين في إحدى زياراتها للقاهرة!

الشخصيات الكاريكاتيرية التي ابتكرها أحمد رجب في عهد الرئيس السادات جعلته يجلس على قِمَّة الساخرين، ويتسبب في زيادة توزيع جريدة الأخبار ١٠٠ ألف نسخة. يروي مصطفى أمين تلك الواقعة بقوله: «جاءني تقرير التوزيع ليؤكِّد أن السبب في الزيادة هو الكاريكاتير الذي يُنشر في الصفحتين الأولى والأخيرة!

فقرَّرت إعطاء مئة جنيه زيادة في مرتَّب أحمد رجب ومصطفى حسين، فثار المحرِّرون وغضبوا وأرسلوا شكاوى إلى الرئيس السادات، وقالوا له إن مصطفى أمين أعطى لمحرِّرٍ مئة جنيه علاوة شهريًّا، واتصل بي الرئيس السادات وسألني: هل صحيح أنك أعطيت زيادة لمحرِّر في مرتَّبه تصل إلى مئة جنيه شهريًّا؟

قلت له: لقد حدث هذا فعلاً، ولكن لاثنين من المحرِّرين وليس لواحد فقط.

قال الرئيس: كيف يحدث ذلك؟

قلت: حينما طلبتَ مني أن أتولى الإشراف على أخبار اليوم قلتَ بالحرف الواحد: تَوَلَّ أخبار اليوم وقم بعملك الذي كنت تؤدِّيه قبل أن تدخل السجن.

قال: أليس من الأفضل لو أنك أعطيت كل محرِّر وعامل ٥٠ قرشًا في الشهر ومن ثَمَّ تُسعِد جميع العاملين؟

قلت: لا.. إنني كنت سأسعد الفاشلين، إنني فقط أكافئ المجتهدين!».

أحمد رجب كان يعلم أن الرئيس السادات اعترض على المكافأة التي صرفها مصطفى أمين له، ورفض أن يعطيه منصبًا، لكنه بعد وفاته كان أول من دافع عنه أمام الهجوم الذي نال من سمعته السياسية قائلاً: قرأت في إحدى المجلاّت الخارجية حديثًا لسياسي عربي حاول أن يوحي فيه بأن حرب ٧٣ كانت تمثيلية متفقًا عليها بين السادات وكسينجر.. ولا تفسير لهذا الكلام إلاّ انتشار المخدّرات!

عندما جاء الرئيس مبارك إلى كرسي الحكم خَلَفًا للرئيس السادات، لم يكُن أحمد رجب في حاجة إلى تعريف أو تقديم، فكان الرئيس يعرفه جيدًا منذ كان نائبًا للرئيس السادات، والتقاه أكثر من مرّة، لكن أحمد رجب ظلّ على عهده مع البُسَطاء لم يسْعَ للحصول على شيء، واكتفى بأن يكون الكاتب الذي تُقرأ الجريدة من أجله، فلم يكتب عن الرئيس لوجه السلطة بل كان دائمًا يكتب لوجه الله دون أن يعتبر ذلك إنجازًا، فقد كتب معلّقًا على اقتران اسم الرئيس بالمشروعات الجديدة: نحن نرفض أن يُطلَق اسم الرئيس مبارك على مركز الزلزال الإقليمي المُزمَع إقامته، ولا نقبل أن يقترن اسم الرئيس بلفظة تركت فينا وفي أطفالنا بالذات آثارًا نفسية عميقة.. نحن لا نطالب المنافقين بأن لا ينافقوا، بل أن يُحسِنُوا النفاق.

جرأة أحمد رجب رغم قُوّتها وتأثيرها فإنها لم تتجاوز أبدًا حدود اللياقة والآداب العامّة، لأنه لم يكن يومًا واحدًا من مُدَّعي البطولة، لكنه كان بطلاً حقيقيًا حتى عندما يواجه الرئيس، فكتب يقول: حريتي وحرية قلمي وأمني وأماني مرتبطة بشخصك، وسوف أنتخبك رئيسًا لأنني سوف أجدِّد معك حريتي وحرية رأيي وأمني.. لقد أنجزتَ الكثير

ونأمل في الإنجاز الأكبر، وهو أن لا تكون حريتي وحرية تعبيري وأمني مرتبطة بشخصك.

أحمد رجب لم يكتب شيئًا عن علاقته بالرئيس مبارك وتعليقه على ما يكتب سوى مرة واحدة عندما توقف كاريكاتير «فلاح كَفر الهنادْوَة» في أخبار اليوم –بعد أن حاول رئيس التحرير التدخُّل فيه بحذف كلمة منه، فكان قراره بعدم الكتابة في أخبار اليوم مرة أخرى– وأشيع أنه صدر قرار بمنعه من مواصلة رسوم «فلاح كَفر الهنادْوَة»، فردَّ على تلك الشائعة بقوله: لم أستأذن الرئيس مبارك في رسوم زيارة فلاح كَفر الهنادْوَة للرئيس، فإني أعرف بالتجربة الطويلة احترامه لحرية الصَحافة، بل إنه أذنَ للفنان عمرو فهمي بإقامةَ معرض كَفْر الهنادْوَة وأناب الفنان فاروق حسني لافتتاحه، وأشهد أن في كلِ لقاءاتي مع الرئيس لم يفاتحني في ما أكتب سواء في «نُصّ كلمة» أو «كَفر الهنادْوَة»، إذن الرئيس لا علاقة له باحتجاب كَفر الهنادْوَة.

أحمد رجب ظلّ كما هو، السنوات تمرُّ ولا يتغير، وأفكاره ومبادئه لا تتبدل، فعندما أثير الحديث حول توريث الحكم لم يصمت –رغم أنه يكتب في صحفية قومية– بل علّق على حديث نجل الرئيس قائلاً: رغم أن جمال مبارك أجاب عن كل الأسئلة فإنني كنت أتمنّى أن تكون الإجابة جديدة كالأسئلة.

لم تتوقف جرأة أحمد رجب عند هذا الحد، بل انتقد بقاء الحاكم في السلطة مدى الحياة بقوله: يوجد في أمريكا معقل الديموقراطية خمسة رؤساء سابقين، وفي دول العالم الثالث الشهير بالتَرسو موندو لا يوجد أبدًا رئيس سابق، وإنما يوجد رئيس فوق الأرض ورئيس تحت الأرض.

نقد أحمد رجب يجب أن يتمّ تدريسه لطلاب أقسام الصحافة، فهو يصل إلى ما يريد دون أن يُؤذيَ مشاعر أحد، ويضرب دون أن يترك أثرًا في نفسيةِ من قام بضربه، لأنه يعرف حدوده ويريد لرسالته أن تصل دون أن يُسيلَ دمًا، وفي الوقت نفسه تجده أكثر حدّة من السيف فيقول: معاملة مريض العقل تختلف باختلاف الدول، ففي الدول المتحضرة يُعامَل معاملة طيبة وإنسانية، أمّا في دول العالم الثالث فإن مريض العقل غالبًا ما يحظى باحترام شديد، لأنه عادة يكون هو حاكم البلاد!

عاطف بيه

كان أحمد رجب متحمسًا لأحد الوزراء يرشّحه رئيسًا للوزارة ويصفه بكل الصفات والأوصاف، وأصبح هذا الرجل بالفعل رئيسًا للوزارة، فكان أحمد رجب أول من هاجمه!

لقد رآه فوق الكرسي، واكتشف أنه أصغر كثيرًا من الكرسي، فلم يخدع الناس ويدافع عنه بغير حقٍّ -مثل كثيرين- لكنه فضّل الاعتراف بالخطأ عن التمادي فيه، و لم يشغله ما يقوله البعض، ولكن شغله ما يُمليه عليه ضميُره، فهذه هي طبيعته، ينقد المسؤول وهو في السلطة، ويدافعَ عنه وهو مطرود من الحكم، فلا يستطيع الذين يهاجمهم أن يكرهوه أو يقاطعوه، بل الغريب أنه عندما يرى واحدًا منهم يتردد أن يصافحه أو يقترب منه، وإذا بالرجل المضروب يأخذه بالأحضان[١٠].

هذه صورة من علاقته بالمسؤولين الذين ينتقدهم، ولا يكرهونه، ومن بينهم الدكتور عاطف صدقي رئيس الوزراء الأسبق، الذي رغم كثرة

---

[١٠] مصطفى أمين: نُصّ كلمة، الجزء الأول، أخبار اليوم، ص٦.

النقد الذي تَعَرَّض له على مدى عشر سنوات قضاها في السلطة فإنه لم يغضب، لكنه في الوقت نفسه كان لا يردُّ على ما تنشره الصُّحُف، فعلق أحمد رجب قائلاً: الحكومة لا تردُّ على ما ننشره، وزمان كنّا نكتب هذه العبارة «إلى من يهمه الأمر»، فأصبحنا نكتب «إلى من لا يهمُّه الأمر: د.عاطف صدقي».

كانت أبرز صفة في الدكتور صدقي أنه لا يتحدث إلى وسائل الإعلام إلاّ نادرًا، فعلق أحمد رجب على قلة ظهوره بقوله: الدكتور عاطف صدقي يرأس وزارة المهمات الصعبة، فوقته ضيّق جدًّا ومشحون، ثم إنه -كما علمت- يرفض الظهور في التليفزيون إلاّ إذا كان سيقول خبرًا سارًّا، ولهذا لم يتحدث في التليفزيون منذ تَوَليه الوزارة!

كان الدكتور عاطف صدقي أول رئيس للوزارة يجلس مع فلاّح كَفْر الهناذْوَة، ورغم نقد الفلاّح له فإنه كان سعيدًا به ويصفه بأنه أذكى سياسي في مصر وأنه لم يسبق أن وصل الكاريكاتير السياسي إلى هذا المستوى الرفيع، لكن أحيانًا كان يختلف مع ما يقوله الفلاح، فمثلاً عندما قال إنه يقضي وقته في مصيف زهراء العجمي اتصل رئيس الوزراء بأحمد رجب وأكد أن الأحداث المتلاحقة لم تمكنه هذا العام حتى من يوم واحد يرتاح فيه.

في عهد الدكتور عاطف عبيد كانت الأوضاع الاقتصادية في غاية السوء رغم أنه كان أستاذًا في الاقتصاد، لذلك كان أكثر رئيس وزارة تعرُّضا للنقد بحكم قراراته التي جعلت المواطن البسيط يعيش أسوأ أيام حياته، لذلك يقول أحمد رجب: سمعت أن أسرة مواطن اسمه عبد الله المصري رفعت دعوى تعويض على رئيس الوزراء، والسبب أن د.عبيد

كان يتحدث أمام اللجنة الاقتصادية بمجلس الشعب مؤكدًا متانة الاقتصاد المصري وصموده أمام الهزّات، وما إن سمع المواطن عبد الله المصري هذا الكلام حتى مات من الضحك رحمه الله!

في أثناء تَوَلّي الدكتور عاطف عبيد رئاسة الحكومة رفعت هيئة الرقابة الإدارية تقريرًا إلى مؤسّسة الرئاسة ترصد فيه حجم التجاوزات، جاء فيه تزايد معدَّلات الفساد حيث شهدت مصر أكثر من ٨٠ ألف حالة فساد، ووصل حجم الكسب غير المشروع إلى ١٠٠ مليار جنيه، وتم تقدير حجم الأموال المختلَسة بـ٥٠٠ مليون جنيه، وحلّت مصر في المرتبة الـ٧٠ بين الدول الأقل فسادًا، وذلك في تقرير منظمة الشفافية الدولية.

لكن رغم كثرة المصائب التي توالت علينا في فترة عاطف عبيد فإنه ظلَّ دائمًا محتفظًا بابتسامته، لذلك علق أحمد رجب بقوله: صار الاكتئاب دوليًا بالإضافة إلى اكتئابنا المَحَلّيّ.. ولا بد من أن تعداد المكتئبين زاد عمّا قدره د.أحمد عكاشة وهو ٣٠ مليون مكتئب، واختفت الابتسامة من السوق السوداء ولم يبقَ من الناجين من الاكتئاب إلاّ د.عاطف عبيد وحده الذي يحتفظ بمخزون استراتيجي وافر من الابتسام يحرق به دمنا صباحًا ومساءً.

أيام الدكتور عبيد كان السؤال الحائر على ألسنة الناس: متى يتوقف جنون الأسعار التي تحقق كل يوم قفزات جديدة؟ ويجيب أحمد رجب بقوله: أحد الفلكيين يقول إن هذا الغلاء سوف ينحسر عند دخول كوكب الزهرة في برج الحمل وخروج عبيد من الوزارة!

لكن أغرب ما حدث في عهد عاطف عبيد هو ما ذكره أحمد رجب قائلاً: نكتة بإمضاء رئيس الوزراء منشورة بالجريدة الرسمية العدد ٤٩ – ٧ ديسمبر ٢٠٠٠، وتقول: «قرار رئيس الوزراء رقم ٢٢٣٧ لسنة ٢٠٠٠ يمنح معاشا شهريًا مقداره ستة جنيهات للسيدتين فوزية حسن أحمد وزينب إبراهيم سليمان أرملتَي نبيل إبراهيم محمد أحمد الذي تُوفِّي في أثناء أداء عمله، يُقسَم مناصفة بينهما من تاريخ الوفاة في ١٢/٤/٢٠٠٠» انتهت النكتة.

تقرير الجهاز المركزي للمحاسبات أكد أن حجم أموال الرشوة في فترة عاطف عبيد وصل إلى ٥٠٠ مليون جنيه، وحجم أموال غسل الأموال أكثر من خمسة مليارات جنيهٍ، ورغم ذلك كانت الابتسامة لا تفارق وجه الدكتور عبيد، لذلك علّق أحمد رجب بقوله: أرجو د.عاطف عبيد أن يقتصد في ابتسامته حرصًا على مشاعر الناس، وأقترح –تقديرًا لظروفه التفاؤلية القاهرة– أن يبتسم يومين في الأسبوع فقط.

السحابة السوداء جاءت مع وزارة الدكتور عبيد سنة ٩٩ وظلّت ملازمة لها باعتبار أن هذه الحكومة جاذبة للكوارث، وكان الناس يظنُّون أن السحابة ستزول بزوال الحكومة، لكن الغريب أن السحابة السوداء استمرّت في عهد الدكتور أحمد نظيف، والأحوال صارت من سيئ إلى أسوأ، وظهرت أزمات غير مسبوقة مثل استشهاد المصريين في طوابير العيش، وكثرة من يُلقُون بأنفسهم في البحر طمعًا في الهروب من مصر عن طريق الهجرة غير الشرعية نظرًا إلى المعاناة الشديدة، لذلك كتب أحمد رجب يقول: من قصص الفولكلور: وقف الرجل على كوبرى الجلاء ضمن صيادي العصاري، وما لبث أن سحب الصِّنَارة من الماء

وقد علقت بها سمكة كبيرة فقال لزوجته بجواره: سمكة محترمة نقليها للعشا، قالت الزوجة: وفين الزيت اللي سعره ولع؟ قال الرجل: نشويها يا ست، قالت: مفيش رَدَّة في السوق كله، قال لها: اعمليها بالصلصة.. قالت: كيلو الطماطم بخمسة جنيه، فغضب الرجل وانتزع السمكة من الصّنَارة ورماها في النيل.. فهتفت السمكة: يعيش الدكتور نظيف!

الصُحُف القومية أطلقت مصطلح «الجماعة المحظورة» علي جماعة الإخوان المسلمين، لكن بمرور الوقت فقدت العبارة معناها، فعلق أحمد رجب عليها قائلاً: عبارة «الجماعة المحظورة» أصبحت لا تتفق مع منطق الواقع وتثير الضحك، فالجماعة المحظورة التي لا تفعل شيئًا هي جماعة الشيخ أحمد نظيف عمدة القرية الذكية.

أحمد رجب يظلُّ دائمًا الشاهد على كل العصور التي عاشها، وتظلُّ كتاباته تأريخًا لمشكلات الشعب المصري مع الحكومات المختلفة التي تفننت في زيادة أعبائه وتحميله أكثر ممًا يحتمل، والكذب عليه، و لم يستطع أحد أن يكون صوتًا للبُسَطاء سواه، فقد حمل همومهم ومسَّ أوجاعهم واقترب من معاناتهم وذهب بها عبر قلمه إلى المسؤولين، ويظهر ذلك من خلال مئات الأعمدة التي كتبها على مدى سنوات طويلة، و لم تكن هذه الأعمدة سوى صورة من معاناة المواطن البسيط مع الحكومة التي يقول عنها: يتهمون الحكومة بالإسراف والسَّفَه، وهي تهمة ظالمة بدليل القرارات الحكومية التي تنشرها الجريدة الرسمية أحيانًا، كهذا القرار مثلاً عن مواطن قتل وهو يؤدّي عملاً تمّ تكليفه به، فأرسلت الحكومة إلى والده تعويضا مقداره ٢٥٠ قرشًا (ملحوظة: لا توجد غلطة مطبعية).

وزير يفكر!

خلق الله الإنسان والشيطان والملاك والوزير!

لذلك لا يوجد قانون يحاكم الوزراء لأنهم من طبقة الملائكة، فقد نَصّ دستور ٢٣ على محاكمة الوزراء لكنه لم يصدر، ورفض النحّاس باشا أن يعترف بأن الوزراء ملائكة، وأصرّ على إصدار القانون، وعندما تأكد أنه لن يصدر استقال، وجاءت الثورة وصدر قانون لمحاكمة الوزراء عام ١٩٥٧ لكنه لم يُستعمل قَطُّ، و لم تنعقد ولو لمرة واحدة محكمته المشكّلة من مستشارين وأعضاء من مجلس الشعب.

فلم يثبت على مدى أكثر من نصف قرن أن لدينا وزيرًا حامت حوله الشبهات أو وزيرًا استغلّ نفوذه، أو وزيرًا خالف الدستور وتاجر في الأراضي واشتراها من الحكومة بثمن بخس وباعها بأضعاف مضاعَفة، أو وزيرًا تَرَبَّحَ من منصبه أو وزيرًا عقد أقاربُه الصفقات في حِمَى نفوذه،

أو وزيرًا قبض عمولة، أو وزيرًا انحرف بشكل أو بآخر مثل وزراء فرنسا وإيطاليا واليابان الفاسدين[١١]!

الوزراء في مصر فوق مستوى الشبهات، منذ أيام مينا موحِّد القطرين، فمرتَّب الوزير لا يكفيه، لأن منصب الوزير المهنة الوحيدة التي لا تحتاج إلى مؤهلات أو خبرة سابقة، وذلك على حدِّ تعبير أحمد رجب الذي لولا سخريته من الوزراء لكانت الناس ماتت كمدًا لأن صوتها لا يصل إلى المسؤولين.

أحمد رجب لا يشغله سوى القضايا التي ترتبط بالمواطن البسيط، لذلك أغلب كتابته تجده عن وزراء التعليم والكهرباء والمالية والنقل والإسكان والداخلية، لكن أكثر الوزارات التي حَظِيَت باهتمام أحمد رجب هي وزارة التموين قبل أن يتغير اسمها إلى التَضامن الاجتماعي، فكتب عن وزيرها يقول: تأثر الجميع بعدم وجوده، واعتقد البعض أنه شخصية وهمية، ويقول البعض الآخر إنهم رأوه رأي العين، وأقسم آخرون أنهم صافحوه وجلسوا معه، ومع ذلك فلا أحد يعرف الحقيقة ولم يصدر بيان رسمي من الحكومة يؤكد وجود أو عدم وجود وزير التموين!

علَّق مفيد فوزي على ما كتبه أحمد رجب قائلاً: «عزيزي أحمد رجب.. وزير التموين موجود ولكن البطون القنوعة غائبة».

الإمضاء: ضمير.

---

[١١] أحمد رجب: الفهامة، دار الشروق، ص٧٦.

ردّ عليه أحمد رجب بقوله: «عزيزي مفيد فوزي: أعتقد أن غلطة مطبعية قد وقعت في عبارتك، وصحّتها: البطون القنوعة موجودة، ووزير التموين غائب..

الإمضاء: ضمير حي».

عندما كثرت كوارث رغيف العيش وظهرت أعواد الثقاب والمسامير بداخله علّق أحمد رجب بقوله: هناك محاولات لرفع سعر رغيف الفقراء، ويقال إن متحدثًا باسم وزير الطوابير والدندرمة صرّح قائلا في غضب: قبل أن تلومونا على رفع سعر الرغيف اسألوا أولا كم يبلغ سعر كيلو المسامير!

الحصول على رغيف الطابور في مصر له طقوس، أولها أن تحجز مكانك في الطابور في الفجر، وثانيًا أن لا تعترض على الرغيف الذي فقد صلاحيته للاستعمال الآدمي حتى لا تلقى مصير مواطن شبرا الخيمة الذي قتله ابن صاحب المخبز، ويعلق أحمد رجب على هذه الطقوس بقوله: لا تتوهم أن وزارة التموين والدندرمة تخجل من هذا كله، فالمثل الشعبي يقول: قالوا للقردة اتبرقعي قالت ده وش واخد ع الفضيحة.

ويضيف قوله: قال حكيم أسبرطة: أهمُّ من أن تكتب كتبًا أن يكتبوا عنك الكتب، ووزير التموين لم يؤلف كُتُبًا ولكنهم يكتبون عنه، إذ يظهر في المكتبات قريبًا كتاب بعنوان «نوادر وزير التموين».

عدم وجود أي فائدة لوزير التموين وكثرة المشكلات والكوارث التي تتوالى على وزارته جعلت أحمد رجب يتساءل: لماذا لا يتم نقل وزير الطوابير والدندرمة إلى عمل آخر يكون فيه ذا نفع وفائدة للناس؟!

علاقة أحمد رجب بالوزراء طوال الوقت فيها شَدٌّ وجذب، لأنه لا ينتظر مدحا من أحد ولا يخشى المسؤول مهما بلغ نفوذه، لكنه ظلّ محافظا على علاقته بالقارئ، فعندما قرَّرت وزارة النقل إلغاء الدرجة الثالثة في القطار وإحلال الدرجة الثانية مكانها علّق بقوله: هذا المشروع نبيل ولن يكلّف الهيئة إلاّ وضع لافتة «الدرجة الثانية» مكان لافتة «الدرجة الثالثة»، والأرجح أن هذا المشروع مقتبَس من عربة قمامة بحمارين كانت تجوب شوارع الدقي وقد كتب صاحبها على ظهرها «٥٦٩ جمرك السلوم»!

أغلب وزراء النقل لا يخرجون من الوزارة إلاّ بحادثة مروِّعة، وأغلب هذه الحوادث يكون في القطارات لدرجة جعلت الناس تظنُّ أنها وسائل نقل إلى الآخرة، لذلك كتب أحمد رجب: نفى وزير النقل الاتجاه إلى تحويل السكك الحديدية إلى شركة قابضة رغم أن السكك الحديدية أصبحت بالفعل قابضة للأرواح.

نقْدُ أحمد رجب وزراءَ النقل أقلُّ بكثير من نقده وزراءَ المالية الذين ينظر إليهم المصريون باعتبارهم العدوَّ الأول والأوحد للفقراء، فلم يظهر شخص جلس على هذا الكرسي وأحبه الناس، لذلك كان أحمد رجب لهم بالمرصاد، فيقول: من شكاوى المقهورين ضحايا وزارة الابتزاز –المالية سابقًا– أن الممول الذي يتوجه لدفع ما عليه من ضريبة المبيعات يطلبون منه رسما جديدًا «جنيهان» اسمه رسم فتح الخزينة لوضع فلوس المموِّل بداخلها، ونبّه وزير المالية بوجوب فرض رسم آخر «جنيهان أيضًا» اسمه رسم إغلاق الخزينة حتى لا يُضطرُّ الموظف إلى ترك الخزينة مفتوحة لأن أولاد الحرام كتير.

«الرزّاز» كان أكثر وزير ماليّة ذُكِرَ في «نُص كلمة» من كثرة شكاوى الناس من ضرائبه ودمغاته، لكنه لم يستجب لكتابات أحمد رجب فكتب عنه: الدكتور الرزّاز لا يقرأ ما يُكتب في هذا المكان لأن هذا المربّع مخالف وليس عليه طوابع دمغة!

لكن في عهد الدكتور يوسف بطرس غالي اكتشف الناس أن الرزّاز لم يكُن الأسوأ وأن هناك من يمكنه التفوّق عليه، بفرض مزيد من الضرائب، فقام أحمد رجب بعمل حديث معه لكنه «حديث لم يحدث» جاء فيه:

قال لي د.بطرس غالي أول ما نطقت في طفولتي قلت بابا هات قرش، وكل واحد في البيت أقول له هات قرش حتى أم حسيبة الشغالة، وبعدين كل ضيف يزورنا: هات قرش، فأصبحوا يحبسونني إذا زارنا ضيف، ولما اتعلمت المشي ونزلت الشارع أقول لكل واحد معدّي هات قرش، وفي المدرسة أقول لكل واحد من التلامذة والمدرّسين والفرّاشين هات قرش، وعاقبوني بأوضة الفيران، وقلت لفرّاش أوضة الفيران هات قرش، وحَبُّوا يعالجوني م الكلمة دي قلت للدكتور ريّح نفسك وهات قرش، وكبرت وسافرت للدكتوراه وعالجوني بره وبطلت اقول هات قرش، وبقيت أقول هات ضريبة، لحد ما وصلت بعون الله للضريبة العقارية.

لم يقتصر نقد أحمد رجب على وزير المالية فقط لكنه ذهب إلى وزير الداخلية حين قال: زمان كان عسكري المرور يحكم المرور، ثم تَسَيَّبَ الشارع فنزل الصول ليعيد الانضباط، ثم نزل الملازم، ثم نزل المقدّم، ثم نزل العقيد ثم نزل العميد ثم نزل اللواء قائد المرور، حتى وصل الأمر منذ سنوات إلى نزول وزير الداخلية شخصيًا، ولم ينضبط المرور.. والأمل قوي في نزول رئيس الوزراء.

ومثلما انتقد وزير الداخلية بسبب أزمة المرور التي لم تُحَلّ منذ أيام أحمس، انتقد أيضًا وزير الكهرباء لكثرة انقطاع النور بقوله: احتفل ماهر أباظة وزير الكهرباء بعيد ميلاده الخمسين وأطفأ خمسة أحياء في القاهرة.

الغريب أن الوزير ماهر أباظة بعد أن قرأ هذه العبارة اتصل بالأستاذ أحمد رجب وصار صديقًا له، ورغم ذلك لم تؤثر روابط الصداقة على جرأة النقد فكتب أحمد رجب يقول: هناك فكرة لتغيير اسم منصب «وزير الكهرباء» إلى «مُطفِي الديار المصرية».

لكن في الوقت الذي كان فيه بعض المسؤولين يتقبلون النقد كان آخرون يرفضونه، بل ويقومون بإرسال ردود تهكمية، ويذكر أحمد رجب واحدًا من هذه الردود بقوله: «تلقيت رسالة موقعة من «دكتور اقتصاد» يقول فيها إنني ساقط ثانوية عامّة وأتطاول على الجامعيين حقدًا وكراهية، ثم يتساءل: فما الذي يُقحِمُني في المسائل الاقتصادية.

عزيزي الدكتور: شكرًا لاهتمامك بما أكتب، وأودُّ أن أصحّح لك: أولاً- شهادة الثانوية على أيامي كان اسمها التوجيهية. وثانيًا- أنني درست الاقتصاد بكلية الحقوق أربع سنوات، وثالثًا- أنني أفهم في الاقتصاد لسبب واحد وهو أنني لا أحمل دكتوراه في الاقتصاد.

ملحوظة: تحياتي للدكتور وزير الاقتصاد الذي تعمل معه».

مشكلاتنا مع الوزراء أزلية، لذلك كان الوزراء في أسبرطة القديمة يعتمدون على من يفكر نيابة عنهم لحل مشكلات الجماهير، حتى صحا الأسبرطيون يومًا على الصُّحُف الصباحية وفيها عنوان رئيسي واحد: حادثة الموسم.. وزير يفكر!

ويومها تمنى شعب أسبرطة أن يكون هذا الوزير هو وزير التعليم، فمن عنده تكون البداية الحقيقة للنهضة وبغيره لن يكون في الإصلاح أي أمل، لذلك يُعتبر وزراء التعليم هم أكثر من تَعَرَّضَ للنقد، وعلى رأسهم الدكتور أحمد فتحي سرور عندما كان وزيرًا للتربية والتعليم في نهاية الثمانينيات، فقد رصد أحمد رجب حال التعليم أيام الدكتور فتحي سرور بقوله: أصبحت مهمَّة وزير التعليم عمل فرقعات بين وقت وآخر تجعله حديث كل بيت في مصر، ثم يظهر بعدها في التليفزيون والراديو والتليفون والجرامفون ليزيد الناس متاعب ومعاناة، وما دام هو محور الحديث فلا شيء يهم، ولو كان ذلك على حساب تلاميذ صغار يقاسون العذاب النفسي بقراراته وبلبلاته وامتحاناته وتناقضاته وإضافة مقرَّرات وإلغاء مقرَّرات ليلةَ الامتحان، ومع ذلك نحن لا ننكر مجهوده العظيم في تطوير التعليمً الذي انحصر في تغيير اسم التعليم إلى العملية التعليمية، وكان يمكن أن يكون التطوير أعظم لو غير اسم التعليم إلى العملية فقط، ليصبح لقبه أكثر تطورًا: معالى وزير العملية!

بعد نجاح الدكتور فتحي سرورٍ في الانتخابات واختياره رئيسًا لمجلس الشعب علق أحمد رجب قائلاً: الدكتور «سرور» أصبح في مكانه المناسب كرئيس لمجلس الشعب، فهو أستاذ كبير من أساتذة القانون، وهو جدير بالمنصب والمنصب جدير به، وإذا كانت مئات البرقيات قد هنَّأته لانتخابه رئيسًا لمجلس الشعب فإن برقيات التهاني تبادلها -لنفس السبب- أولياء أمور مصر.

واحد امتحاناتي

رحم الله طه حسين!

قال إن التعليم كالماء والهواء، ولم يخطر بباله أنه سيصبح في يوم من الأيام «فئات» و«عمال»!

من يملك المال أو الواسطة -أو كليهما- يتعلم ويحصل على أعلى الشهادات. وأمامه أكثر من طريق: إما أن يذهب إلى المدرسة والكليات الخاصّة التي يتعلم فيها «بفلوسه»، وإما أن يوفر هذه الأموال ويلجأ إلى الواسطة، أو الغش في الامتحانات، ليضمن الذهاب إلى الكلية التي يريدها، دون عقبات، وعندما يذهب إليها لن يجد أي مشكلة إذا كان والده يقوم بالتدريس في الكلية.

لذلك علَّق أحمد رجب على مسألة تفوُّق أبناء الأساتذة في الكليات قائلاً: تَخَرُّج أبناء الأساتذة في كليات الطب بتفوُّق مسألة نبوغ ولا علاقة لها بالغش العلني الذي تكافحه الدولة الآن. ولهذا لن تثار هذه المسألة لأنها مشروعة وأصبحت تقليدًا راسخًا، بل إن أبناء أساتذة الطب من

الخريجين يكتسبون ثقة الزبائن بفضل أسماء آبائهم، ولذلك نجد زبائنهم دائمًا من القادرين على نفقات العلاج وعمر مكرم.

لم يتوقف أحمد رجب عند حدود الساخر، لكنه كشف عن كارثة تحدث منذ سنوات في كليات الطب بقوله: أعرف «بوابا» هو نزيل مزمن في مستشفى جامعي، وهو واحد من مئات المرضى الذين يطوفون ببيوت الطلبة عند الامتحانات العملية لتغشيشهم عند فحصهم أمام الأستاذ، وهكذا أصبح الغشُّ تجارةً لها مرتزِقة ابتداءً من الدروس الخصوصية حتى المرضى، ولذلك لا تُدْهَشْ منَ حكاية الطبيبين اللذين وقفا أمام مريض يتصبب عرقًا ويتنفس بصعوبة، ومرَّر كل منهما يده من تحت الملاءة ليمسك بيد المريض.. فقال الطبيب الأول: «ده خلصان».. وقال الطبيب الثاني: «مؤكد أنه "شام" كوكايين».. واتضح أن كلا الطبيبين يمسك بيد الآخر تحت الملاءة!

من هنا انتشرت ظاهرة الدروس الخصوصية في الجامعات بعد أن انتشرت في المدارس، وأصبح ذهاب الطالب إلى الدرس الخصوصي أهم عنده من الذهاب إلى المدرسة أو الجامعة، لذلك يقول أحمد رجب: أكبر دليل على فساد نظم التعليم عندنا، أن المواطن الذي يعلِّم أولاده في المدارس الخاصّة، يعاني من تكاليف هذه المدارس، بينما المواطن الذي يعلم أولاده في المدارس الدولة، يعاني من التكاليف الباهظة لمجّانية التعليم.

الغريب أننا نتحدث طوال الوقت عن مجّانية التعليم في حين أننا ننفق في العام الواحد مليارًا و ٢٠٠ مليون جنيه على الدروس الخصوصية، ومليار جنيه على الكتب الخارجية، لذلك يقول أحمد رجب: مجانية التعليم في بلادنا تجرِبة فريدة لا وجود لها في أي دولة رأسمالية أو اشتراكية، وقد

قام خبراء التعليم من مختلف دول العالم بدراسة مجانية التعليم عندنا حتى يتجنبوا تطبيقها في بلادهم.

المدارس عندنا لم يعُدْ لها دور، فبعد أن تَخَلَّتْ عن دورها التعليمي لمراكز الدروس الخصوصية فقدت دورها في التربية أيضًا، وأصبحت ساحة للمعارك بين الطلاب والمدرّسين، ففي الشهر الأول من العام الدراسي ٢٠٠٩-٢٠١٠ شهدت مدارس الإسكندرية -التي تعلم فيها أحمد رجب- ست حالات انتحار و١٣ حالة طعن بالمطواة، و٣٣ حالة عنف من المدرّسين والمديرين ضدّ الطلاب، و١٥ حالة عنف من أولياء الأمورِ ضِدّ المدرّسين والمديرين والنُّظار، بالإضافة إلى سبع حالات تَعَدٍّ من الطلاب على مدرّسيهم وخمس حالات عنف من أولياء أمور ضدّ أبنائهم، وسبع حالات عنف وقتل طلاب ضدّ زملائهم[١٢].

تلك الحوادث وغيرها جعلت أحمد رجب يقول: «في عصر يعلن عن نفسه كل يوم على صفحات الحوادث والجريمة وظهرت طائفة من المنبوذين وهم أصحاب الأخلاق الشاذة الذين يتمسكون بالأخلاق لذلك في صفحة الإرشادات الحديثة (الموجودة على ظهر الكراسات) ينبغي على التربويين أن لا يكتفوا بتوجيه الطالب إلى السلوكيات المدرسية الواجبة، بل عليهم أيضًا أن يسلحوه بما يعينه على مواجهة الحياة العملية الواقعية كأن يُقال مثلاً:

- كُنْ حليمًا ولا تضرب مدرسك إلاَّ للضرورة، وتَذَكَّر العفو عند المقدرة.

---

[١٢] تقرير صدر عن مركز المصري لحقوق الإنسان.

- نَمْ مبكرًا واستيقظ مبكرًا، ففي البكور رزق وفير من كيس الأم وسجاير الأب في أثناء نومهما.
- لا تقُل لأستاذك في المدرسة ما لا يحب سماعه، كُنْ عَفّ اللسان واستعمل يديك.
- لا تحسد أحدًا على نعمة أو ثروة بل اجتهد مثله واختلس.
- اغسل أسنانك بالسواك حتى تظلّ قوية عند استعمالها مع من هو أقوى منك.
- أَحبَّ لأخيك ما تحب لنفسك وادْعُهُ لمشاركتك في المتع البريئة مثَل «الشَّمّ».
- لا تعتمد على الحظ واجتهد واعتمد على ذراعك.
- من جَدَّ وجد الواسطة القوية.
- لا تفكّر في قتل عدوك.. اترك ذلك لزيت التموين.
- إذا طلبتِ من أحد شيئًا فقل له من فضلك، وإذا أعطاك أحد شيئًا فليكن ذلك بعيدًا عن عيون الرقابة الإدارية».

أعتقد أن هذه النصائح مطبّقة حرفيًا في مدارسنا، التي أصبحت تخلو من التربية بعد أن خلت من التعليم، وتقلص دورها في إعداد الامتحانات، لذلك ظهر لدينا «واحد امتحاناتيّ» وهو خبير في وضع الامتحانات التعجيزية، ويتحدث عنه أحمد رجب الذي رسم له صورة من واقع يومياته بقوله:

الجمعة:

قضيت اليوم كله أحاول وضع أسئلة امتحان في اللُّغة العربية وانتهت محاولاتي بتمزيق كل الأسئلة بعد أن اكتشفت أنها سهلة ومفهومة، ويمكن للطلبة الإجابة عليها.

السبت:

اتصل بي صديقي الأستاذ «الدندراوي»، وقال لي بعد مناقشة اتفقنا على الاجتماع في بيت صديقنا الأستاذ «أبو العقدة» إذ إننا -نحن الثلاثة- نؤمن بمذهب امتحانيّ واحد لا تؤمن به الغالبية العظمى من الأساتذة واضعي الامتحانات، ومذهبنا أن يكون الامتحان تعجيزًا، وأن تكون الأسئلة ألغازًا، وإلاّ فكيف يمكن أن تكتشف قدرات الطالب الخارقة ومعجزاته.

الأحد:

اجتمعنا في بيت الأستاذ «أبو العقدة» واستقرَّ الرأي في بداية الاجتماع على أن يعرض كل منَّا الأسئلة التي وضعها في مادته حتى نتبادل الآراء لتلافي سهولة أي سؤال، وبدأت بعرض أسئلتي وقرأتُ الامتحان الذي وضعته للغة العربية:

أولا الإنشاء: اكتب في احد الموضوعين الآتيين:

١. العتريس وأثره في الحضارة الإنسانية

٢. تجلق الخرطاف يومًا فتشوشن في أكمه حتى سالت دماؤه.. اكتب موضوعًا على لسانه الذرب.

عند هذا الحد من قراءتي للأسئلة مطّ الأستاذ أبو العقدة شفتيه في استياء قائلاً: العتريس ده مفهومة قوي، وعلق الدندراوي في قرف: وموضوع الإنشاء الثاني فيه عبارة واضحة جدًا وهي "حتى سالت دماؤه"، كل طالب سيفهم معناها.

فانتحيت جانبا لزيادة تصعيب السؤال وعدت أقرأ لهما:

اكتب في أحد الموضوعين الآتيين:

١. الأقلاظ ورموحه المشمول في الحضارة الإنسانية.. صاح أبو العقدة: كده عال.

٢. تجعلق الخرطاف يومًا فتشوشن في جردابه حتى تبعرط بعرطة شديدة.. اكتب موضوعًا على لسانه الذرب.

وهنا سأل أبو العقدة الأستاذ الدندراوي: فاهم حاجة من الكلام ده؟

قال الدندراوي: أبدًا.

هنا أعلن أبو العقدة رضاه عن أسئلة الإنشاء فواصلتُ قراءة الأسئلة بين استحسان أبو عقدة والدندراوي.

وبعد ذلك بدأ الدندراوي يعرض علينا الأسئلة التي وضعها لمادة التاريخ، وقال إنه تَوَخّى أن تكون أسئلته أسئلة ذكاء صعبة لا أسئلة أولاد

صمَّامين حمير، ثم قرأ من ورقة في يده: أجب عن كل من أ، ب في السؤال الثاني:

١. اشرح معنى كلمة «نابليون» في ما لا يقل عن خمسين سطرًا.

صاح أبو العقدة: خليهم ١٢٠ سطرًا، ثم هز رأسه متشككًا في صعوبة السؤال، معلنًا أنه من المحتمَل جدًّا أن يجيب عليه عدد كبير من الطلبة.

وانتهت المناقشة بتعديل الفقرة (أ) من السؤال الآتي: (أ) اشرح معنى كلمة «نابليون» في ما لا يقل عن ٢٠٠ سطر، بحيث يكون عدد كلمات السطر الواحد ١١ كلمة ونصفًا.

وبعد هذا السؤال أستأذن الأستاذ الكبير أبو العقدة في تأجيل الاجتماع ليوم آخر للنظر في بقية الأسئلة إذ إنه مشغول بترتيب وإعداد أسئلة الامتحان الشفوي بالمعهد الذي يدرس فيه.

الثلاثاء:

في البيت مع الأستاذ أبو العقدة لمراجعة بقية أسئلة التاريخ التي وضعها الدندراوي، وقد رفض الأستاذ أبو عقدة سؤالاً يقول:

اكتب بالتفصيل تاريخ العالَم منذ خُلق آدم وحوَّاء حتى قيام حرب فيتنام.

قال الأستاذ أبو عقدة إنه سؤال سهل يمكن الإجابة عليه، وكتب بدلاً منه سؤالاً يقول:

أجب عن السؤال الآتي:

كان من المفروض أن يكون هنا سؤال في التاريخ، ولكن الممتحن عدل عن كتابته في ورقة الأسئلة.. فاذكر ما هو هذا السؤال وأجب عليه بالتفصيل.

هنا احتضن الدندراوي أبو عقدة بشدة على هذا السؤال الرائع.

الجمعة:

الحمد لله لم ينجح أحد في اللُّغة العربية ولا في التاريخ، فأقمنا حفلة بهذه المناسبة عند الأستاذ الدندراوي»...

«أبو العقدة» ليس شخصية من وحي الخيال، فقد رأيته كثيرًا في سنوات المدرسة والجامعة، ولم يتوقف عند الحدود التي رسمها أحمد رجب، بل كان يعطي الامتحان–التعجيزى– للطلاب الذين يحصلون معه على درس خصوصي، ويجعلهم يقومون بعمل علامات خاصّة في أوراق إجاباتهم حتى يعرف أوراقهم ويمنحهم درجات النجاح، لذلك تَوَقَّعَ أحمد رجب انقراض المدرِّس البشري من المدارس، لأنه واحد من اثنين: إما محترف دروس خصوصية وهذا سيموت من الإرهاق والجشع، وإما مدرس شريف يترفع عن الدروس الخصوصية، وهذا سوف يموت من الجوع، لذلك يجب أن نتأهب لعصر «الروبوت» أو المدرس الآلي، وهو مدرِّس مبرمَج بجميع الفضائل التي يتحلى بها معلِّم مثالي.

لم يكُن ممكنًا أن يتجاوز أحمد رجب الحديث عن الثانوية العامَّة في «نُصّ كلمة» بل كانت محورًا رئيسيًّا لها على مدى سنوات طويلة لدرجة أنه ابتكَر لها أمثالاً عندما قال: امتحان الثانوية العامَّة أصبح «بعبع» كل

بيت، ولو كان أجدادنا الذين اخترعوا الأمثال جرَّبوا مرارتها لصاغوا لنا أمثالاً عصرية عنها مثل «إيه اللي غمَّك دي الغمَّة.. قال ابني في الثانوية العامَّة» و«زيدي يا عين الدموع.. الولد ماجابش مجموع» و«إيه بيعك هدومك يا عطية.. قال الدروس الخصوصية».

من هنا يرى أحمد رجب أن تطوير التعليم لن يتحقق إلاَّ بوفرة في المال تتصاعد مع تعدادنا المتزايد، ويضيف قوله: الدولة مهما فعلت لن تستطع الإنفاق على التعليم كما ينبغي. وهذا ينعكس بوضوح على الخريجين. لكن من حسن الحظ أن الشاب في بلدنا يتخرج في الجامعة صغير السن بحيث يستطيع أن يبدأ التعليم من جديد في أي بلد آخر:

الفصل الخامس

يُحكَى أن رئيس مجلس الشعب كان يقرأ من ورق أمامه وهو على المنصة: «تُوُفِّي يوم الأربعاء الموافق».. وهنا قاطعوه برفع أيديهم: «موافقون»...

حرب أكتوبر

قام سفير إسرائيل بالأمم المتحدة بشكوى أحمد رجب لمجلس الأمن!

واتهمه السفير الإسرائيلي بالقاهرة بأنه مُعاد للساميَّة ويجب أن يكون في السجن، وقد نشرت صحيفة نيويورك تايمز أخطاره باعتباره أكثر الكتَّاب تأثيرًا في حياة المصريين، وحين منحت نقابة الصحفيين جائزتها التقديرية لأحمد رجب هاجمه زيفي مازيل السفير الإسرائيلي قائلاً: «إن أحمد رجب يجب أن يكون في السجن الآن»، مشيرًا إلى معاداته للساميَّة وإشادته بموقف هتلر من اليهود[١٣].

هذه العاصفة العاتية قامت على أحمد رجب بسبب «نُصّ كلمة» جاء فيها: شكرا للمرحوم هتلر الذي انتقم مقدَّمًا للفلسطينيين من أحقر مُجرِمي الأرض، وإن كنا نلوم هتلر لأن انتقامه منهم لم يكن كافيًا.

(١٣) سامي كمال الدين: الذين أضحكوا طوب الأرض، دار الكتاب العربي، ص١٤٨.

أحمد رجب واحد من قليلين لا يمسكون العصا من الوسط ولا يسعون للمكاسب الصغيرة على حساب القضايا الكبيرة، فهو لا يعترف بسلام من طرف واحد، ويري أن إسرائيل ليست سوى جماعة من مجرمي الحرب، لذلك يحرص دائمًا أن يذكر بالمفاهيم التي نتوارثها دون أن نَعيَ مغزاها فيقول: لاحظت في أثناء دراستي للغة العبرية أن الفعل الشائع في تصريف الأفعال هو الفعل «قتل» مثل زرع وحصد عندنا، وهو مؤشر له دلالته، ومن ناحية أخرى لاحظت أننا نستعمل اسمَي زيد وعمرو في دراسة قواعد اللغة مع الفعل «ضرب» فنقول ضرب عمرو زيدًا، وهو أيضًا مؤشر على العلاقة بين الإخوة العرب، ففي كتب النحو عمرو يضرب زيدًا من عشرات السنين و لم يفكر عمرو مرة واحدة أن يضرب «كوهين»!

أتمني أن نعيش لنري عبارة «عمرو يضرب كوهين في غزة» في المقررات الدراسية، وفي الحقيقة، بعدما رأينا «عمرو يضرب كوهين بالجزمة في سيناء» في حرب أكتوبر العظيمة التي كان أحمد رجب يسجّل يومياتها بحسّ مَن يقف على الجبهة عبر «نُصّ كلمة»، فكتب بعد عبور الجيش المصري خط بارليف يقول: ٢٥ سنة ونحن نحاول أن نقنع العالم بأن إسرائيل هي عصابة دموية مجرّدة من كل القيم والأخلاق.. ولعلّ نظرةً واحدةً إلى صور هذه الذئاب الجربانة الذين وقعوا أسرى في أيدي أسد سينا المصري، تقنع كل إنسان في الدنيا أنه أمام أفراد عصابة دموية، وأن كل واحد منهم لو مشى في أي مدينة متحضرة في العالم، فلا بد من أخذه للشرطة لعمل محضر في قسم الشرطة مع بيات في التخشيبة.

في يوم الخميس ١١ أكتوبر بدأ قادة إسرائيل يعترفون بالهزيمة، واضطرّت القيادة العسكرية الإسرائيلية إلى تغيير قادة الجيش في جبهة سيناء وفي قيادة الجيش والطيران الإسرائيلي بصفة عامّة، وذلك بعد أيام من القتال في سيناء والجولان، وأعلن المتحدث العسكري الإسرائيلي أن إسرائيل استدعت عددا كبيرًا من جنرالات حرب ١٩٦٧ إلى الخدمة العامّة، فعلّق أحمد رجب بقوله: عُملة إسرائيل وعليها صورة موشي ديان.. والتعليق «آخر عملة إسرائيلية.. ضُرِبَ في سيناء».

بعد أقلّ من أسبوع من بدء المعركة أصبحت صور الأسري الإسرائيليين صورة ثابتة تتصدر الصفحات الأولى من الصُّحُف بفضل بسالة الجندي المصري البطل، لذلك كتب أحمد رجب يقول: «إعلان من رئيس الأركان الإسرائيلي إلى قادة اللواءات المدرعة:

أيها القائد الإسرائيلي

هل تتمنى أن تحقق لنفسك الشهرة في معركتنا المريرة ضدّ المصريين؟
هل تتمنى أن تتجه إليك الأنظار وتُسَلّط عليك الأضواء والكاميرات؟

... إذن اركب دبابتك وهاجم المصريين، وبعدها ستظهر في تليفزيون القاهرة وتصبح فُرجة».

في اليوم التالي كانت المانشيتات الرئيسية في الصُّحُف المصرية «أفواج جديدة من الأسرى ومعها صور لجنود عصابة تل أبيب وهم أذلاءُ في سيناء فعلّق أحمد رجب على كثرة الأسرى قائلاً: «من المَراجع اللُّغويّة الحديثة»

أسر، يأسر، ويُقال هذا أسير أي جندي تمّ أسره، وجمع أسير هو أسرى وهو جمع تكسير في مدرعاتهم وطائراتهم، ولفظة أسرى مشتقة من اسم المنطقة التي تورِّد الأسرى يوميًا وهي (أسرى – ئيل).

الجندي الإسرائيلي أجبن جنود الأرض لا يستطيع الثبات في أرض المعركة، وإذا شعر باقتراب أجله رفع يده وألقي بسلاحه واستسلم أو فرَّ هاربًا، لذلك كان اصطياد الأسرى الهواية المفضلة لدى الأبطال الذين عبروا القناة، وعلَّموا إسرائيل درسا لن ينسوه في الجغرافيا، وهو أن مصر تصدِّر القطن وتستورد الأسرى»!

وضع أحمد رجب تصوُّرًا للامتحانات في مدارس تل أبيب بعد هزيمة إسرائيل جاء فيه:

«من امتحانات اللُّغة في إسرائيل بعد ٦ أكتوبر»

أولاً– قواعد اللُّغة: أوجد الفاعل في العبارتين التاليتين:

(أ) يتقن الإسرائيليون اللُّغة العبرية.

(ب) يتقن المصريون اللُّغة العبورية.

ثانيًا– الإنشاء: اكتب في أحد الموضوعين الآتيين:

١. عدتَ من الحرب دون أن تُقتل أو تظهر في أي تليفزيون عربي، اكتب أسباب هجرتك من إسرائيل.

٢. هَبْ أنك موشي ديان – اكتب استقالتك».

في ٢٩ أكتوبر لجأت إسرائيل إلى حيلة تحاول أن تخفي بها ما أصابها من كوارث على يد أبطال العسكرية المصرية، فقامت بخطف مجموعات من أهالي القرى الموجودة في غرب القناة ونقلهم في لوريات إلى الضفة الشرقية وادَّعت أنهم جنود تمّ أسرهم في أثناء العمليات الحربية، لذلك كتب أحمد رجب برقية على لسان مراسل وكالة الأسوشييتدبرس جاء فيها: «من برقيات (دافيد) لانكشاير مراسل أسوشييتد برس

برقية ٣٣٦ – تل أبيب – (دافيد) لانكشاير

تمكنت قوة إسرائيلية قوامها ٩٨ جنديًا من دخول قلعة الكبش بالقاهرة بعد معركة استمرّت طول الليل بالمدرعات والطيران، وقال ناطق عسكري إسرائيلي: إن أفراد هذه القوة لم يَلْقَوا في طريقهم أي مقاومة حتى عند دخولهم المعسكر ٢٧ المصري بقلعة الكبش.

برقية ٣٣٧ – تل أبيب – دافيد لانكشاير

لا يزال أفراد القوة الإسرائيلية التي دخلت قلعة الكبش موجودين بالمعسكر ٢٧ المصري وهو معسكر لـ"الأسرى الإسرائيليين"!».

لم يكتب أحمد رجب طوال أيام الحرب عن قادة المعارك، لكنه كان يكتب دائمًا عن الجنود، ويبدع في إظهار بطولاتهم وعظمة دورهم، وعلى الجانب الآخر كان يتحدث عن قادة إسرائيل ويسخر منهم قائلا: «رفعت جولدا مائير سماعة التليفون تطلب القاهرة لتتوسل في وقف إطلاق النار، قائلة:

ألو.. ثمانية وأربعون – ستة وخمسون – سبعة وستون!

وردُت القاهرة: غلط، هنا ستة – عشرة – ثلاثة وسبعون».

أمريكا عند أحمد رجب لا تختلف كثيرًا عن إسرائيل، لذلك يقول: يسأل البعض هل كانت أمريكا مستعمَرة؟ طبعًا كانت مستعمرة بريطانية بعد حرب السبع سنوات بين فرنسا وبريطانيا انتهت بسيطرة بريطانيا على أمريكا الشمالية، ثم قامت حرب الاستقلال عن بريطانيا، ونسأل الله أن تحتفل أمريكا قريبًا بعيد الاستقلال عن إسرائيل!

أحمد رجب كان واضحًا للغاية، فأمريكا تتبع إسرائيل في كل شيء، ولا فرق بين قادة واشنطن وقادة تل أبيب، فإسرائيل ترى في مجلس الأمن ثلاث مزايا لا تتوافر لغيرها، فأولاً أمريكا تساندها في كل المواقف ضدّ العرب، وثانيًا إسرائيل هي الدولة الصغيرة الوحيدة التي تملك حقّ الاعتراض على أي قرار ضدها باستعمال الفيتو الأمريكي، وثالثًا إسرائيل ترى في قرارات مجلس الأمن خامة أمريكية ممتازة لمصانع ورق التواليت.

موافقة!

«يُحكَى أن تاجرًا كان عنده ثلاثة أولاد: ذكي وذكي جدًّا وعبقري الذكاء، فسأل الأب كلاً منهم: كم يكفيك من دنياك يا ولدي؟ فقال الذكي: أن يكون عندي مليون جنيه، وقال الذكي جدًّا: أن يكون عندي مئة مليون جنيه. وفكّر عبقري الذكاء طويلاً ثم قال: أن يكون عندي حَصانة»!

تلك الحكاية رواها أحمد رجب، الشاهد الأول على كل الجرائم التي تمّ ارتكابها باسم الشعب في مجلسه الذي عرف كل أنواع النُّوّاب!

نُوّاب الكيف، نُوّاب التأشيرات، نُوّاب القروض، نُوّاب سميحة، نُوّاب شراء الأصوات، نُوّاب النوم في الجلسات، نُوّاب السيديهات، نُوّاب العلاج، وكل هؤلاء لم يكن لهم هدف من الجلوس تحت قبة البرلمان سوى الحصانة.

فهي السبب الرئيسي في النزاع علي كرسي مجلس الشعب، ولولاها ما أصبح للمجلس الموقّر أي ميزة تُذكر في نظر أغلب أعضائه الذين

ارتكبوا كل أنواع الجرائم من دفع رشوة وعقد صفقات والكذب على الناس والتمثيل عليهم وادّعاء البطولة والنزاهة من أجل الحصول على الحصانة.

أحمد رجب كان شاهدا على كل ما حدث تحت القبة، ولم يترك شيئًا داخل المجلس إلاّ علّق عليه، وكشف حقيقته أمام الرأي العامّ. فعندما انتشرت قضية النوّاب الذين ثبت اتجارهم في المخدّرات قال: في مجلس الشعب أربعة أعضاء كل منهم مسّجل خطر بوصفه تاجر مخدّرات، فإذا كان هؤلاء الأعضاء أبرياء فلماذا لا يعلن رئيس المجلس ذلك؟ وإذا كانوا تجّار مخدّرات فعلا فلماذا لا يوكلون المحامي الجنائي الكبير د.فتحي سرور ليقنعنا ببراءتهم ما دام ساكتًا لاقتناعه ببراءتهم؟

ويضيف أحمد رجب: هناك كلاب بوليسية مدرّبة على أعلى مستوى لاكتشاف السموم البيضاء والمخدّرات عمومًا، غير أن هناك طرقًا معروفة لعرقلة مهمّة الكلب، إذ يلجأ البعض إلى استعمال الكولونيا، بينما يلجأ البعض الآخر إلى استعمال الحصانة.

تجاوزات أعضاء المجلس كانت أكثر تنوّعًا من حصرها في نوّاب المخدّرات، فهناك نوّاب متخصصون في بيع تأشيرات الحجّ، وآخرون في الاتجار بالحصانة، لذلك كتب أحمد رجب يقول: بعد بيع تأشيرات الحجّ، آخر فضيحة في سلسلة فضائح الاتجار بعضوية وحصانة المجلس الموقّر، أرجو أن تنتهي آخر دورة على خير، أملاً أن لا يكتشف د.سرور بعد إحدى الجلسات أن محفظته قد نُشلت!

لذلك عندما سأل أحمد رجب سائق تاكسي عن رأيه في الحكم ببطلان مجلس الشعب قال له: ما هو ده يا بيه آخرة المشي البطّال!

من بين مزايا المجلس الموقّر أنه يسمح لأعضائه بالسفر للحج والعمرة على نفقة الدولة والحصول على بدل انتقال داخل الأراضي المقدّسة، وكانت المفاجأة أن بعض النُّوّاب قاموا ببيع تأشيرة الحجّ، وحصلوا على بدل الانتقال، ويروي أحمد رجب تلك الواقعة بقوله: كان من الحقوق المكتسَبة لعضو مجلس الشعب أن يتقاضى ألف جنيه إذا أبدى رغبة في أداء العمرة دون أن يثبت أنه أدَّاها. فالثقة واجبة. وكان بعض الذين أدَّوا العمرة تظهر لهم معجزات خارقة، فبينما هو موجود في مكة المكرمة يتبين في نفس الساعة والدقيقة أنه موجود أيضًا بجلسة المجلس حيث يحقّ له صرف مكافأة حضور الجلسة لأن توقيعه موجود بالحضور. وكان من يرى هذه الكرامات يصيح: الله أكبر! آمنت بالله!

لكن الحصانة بالنسبة إلى الوزير تختلف، فهي أشبة بتأمين لنفوذه وحماية له من أصحاب الصوت العالي نُوّاب طلبات الإحاطة، والأسئلة العاجلة، لذلك سعى عدد كبير من الوزراء إلى الحصول على عضوية مجلس الشعب للجمع بين السلطتين التنفيذية والتشريعية، لذلك يتساءل أحمد رجب: لماذا ترشيح الوزراء لمجلس الشعب؟

ويجيب بقوله: بغضّ النظر عن الخلط بين السلطة التنفيذية والتشريعية، فإن الوزير هو أسوأ نائب دائمًا لأن مشاغله لا تسمح ولو بزيارة الدائرة، ومن الغريب أن الوزير يخطب في الناس قبل الانتخابات محاولا إقناع الناس بمبرّرات انتخابه نائبًا، ولكنه لا يكشف عن مبرّر واحد لتعيينه وزيرًا!

لم تعرف مصر على مدى تاريخها كاتبًا رصد مشكلات مجلس الشعب، وعرف نُوَّابَه وتابع جلساته، من خلال الصُّحُف والتليفزيون، مثل أحمد رجب، ولو لم يكن المجلس مرتبطًا بالشعب لَمَا أنفق عليه كل

هذا الوقت، لكن أطرف ما علّق عليه الساخر الكبير هو إذاعة جلسات المجلس عبر شاشة التليفزيون، بقوله: لماذا لا تُذاع جلسات مجلس الشعب في التليفزيون كاملة من غير حذف، خصوصًا أننا شعب يحب الضحك؟

لاحَظَ أحمد رجب حرص النُّوَّاب على الظهور في التليفزيون من خلال البرلمان فطلب وضع شروط لظهور النائب بقوله: بعض أعضاء مجلس الشعب ليس عندهم ما يُقال، ومع ذلك يقولون أملاً في الظهور على شاشة التليفزيون، ولا مانع أبدًا من أن يتكلم هؤلاء البعض بشرطين: الأول أن تحدَّد مكالمة العضو في ميكرفون المجلس بستِّ دقائق ترشيدًا لاستهلاك الكهرباء، والشرط الثاني هو أن يفكر قبل أن يتكلم.

يُعَدُّ مشهد النُّوَّاب وهم يرفعون أيديهم بالموافقة على القوانين التي لم تأخذ حقَّها من المناقشة والدراسة هو المشهد الأشهر في تاريخ مجلس الشعب، لذلك يقترح أحمد رجب أن يُوجَد تشريع ينصّ على عرض مشروعات القوانين على المحكمة الدستورية العُليا كعلاج يقي من السَّلق والكلفَتَة.. ويضيف: لو كان للقانون المسلوق صندوق أسوَدُ يتمُّ فحصه بعد الحكم بعدم دستوريته لاكتشفنا أن رفع الأيدي بالموافقة على القانون بأسرع من سرعة الصوت وبعضها أسرع من الضوء ومعظمها تمّ دون أن يسأل د.سرور الأعضاء الرأي وأن الأيدي ارتفعت بسبب تصلب العضلات من كثرة رفعها بالموافقة وأن الأعضاء يمشون ويجلسون ويقومون وينامون وأيديهم مرفوعة.

يرى أحمد رجب أن ما يحدث في مجلس الشعب عندنا يؤهله بقوة للدخول ضمن قائمة عجائب الدنيا مثل الأهرامات وحدائق بابل المعلقة وسور الصين العظيم.

ولا يبقى سوى أن نشاهد مَوتانا وهم يروحون ويجيئون ويتجهون إلى الصناديق في موسم الانتخابات.

قبل الانتخابات هناك ظواهر لا تتغير منذ سنوات طويلة، على رأسها أن يعلن كل مرشح عن نفسه باعتباره رمزًا للطهارة والنزاهة والشرف، ويختار لنفسه رمزًا انتخابيًا مثل «الهلال» و«الجمل» وغيرهما من الرموز لتكون بمثابة إحدى طرق الدعاية، لذلك يقترح أحمد رجب أن يتم تغيير هذه الرموز بقوله: الرموز الانتخابية كالساعة والجمل تُستعمل عند انتشار الأمِّية للتفرقة بين مرشَّح وآخر، أما عن أسبرطة القديمة فقد انتشرت فيها الرموز الانتخابية وغير الانتخابية فأخذوا من الحَلّة رمزًا للنظافة لأنهم كانوا يحوِّلون بها الماء إلى الأدوار العُليا، وكان نبات الكوسة رمزًا لتكافؤ الفرص، وكان المسمار رمز الطعام والشراب، إذ كان يدخل في تركيب الرغيف وباكو الشاي، وكانت علبة الكبريت رمزًا للجرد السنوي. أما الجمجمة والعظمتان فكانت رمزًا لزيت التموين.

لكن الغريب أنه بمجرَّد نجاح العضو في الانتخابات تجده نائمًا في جلسات المجلس، لذلك يقترح أحمد رجب التعاقد مع شركة كاثماتسو اليابانية التي توصلت إلى اختراع وسادة تمتصُّ ذبذبات صوت الشخير في أثناء النوم، فيصبح النوم بلا شخير.

أمام كل الكوارث التي قام بها بعض نُوَّاب مجلس الشعب لم يجد أحمد رجب سوى أن يتمَّ نشر نعي يعلن فيه وفاة المجلس قائلاً: «كان ينبغي نشر نعي المغفور له سيد قراره والد الحرامي بالمصرف القومي وحسن كيف بالباطنية والصايع بشوارع القاهرة وأبو نقطة بشارع محمد علي ورجل

الأعمال أبو حصانة ورجل البر والتقوى تاجر تأشيرات الحَجِّ وقريب ونسيب عائلات اللومنجي والبلطجي والضلالي وآكل مال النبي.

والعاقبة عندكم في المسرات».

الفصل السادس

اعتدت ومصطفى حسين أن نترك أحزاننا على باب الأخبار قبل الاجتماع اليومي لعمل الكاريكاتير، فيوم تُوُفِّيَت أُمُّه وأُمِّي انعقد الاجتماع في موعده، وكان أصعب ما فيه أن تنطلق ضحكة مصطفى المجلجلة لأعرف أنه سوف يبدع في رسم الفكرة، وفي المرتين جلجلت ضحكة مصطفى، وانتهى اللقاء لنعود إلى دموعنا.

مصطفى حسين

طلب أحد الوزراء حضور جلسة تحضير الكاريكاتير!

حاول احمد رجب أن يعتذر، لكن الوزير أصرَّ، وحضر الاجتماعَ، وجلس على مَقْعَد في نهايةٍ الحجرة صامتًا، وعلى مدى ساعتين ونصف الساعة جلس الساخران يفكران حتى انصرف الوزير زهقًا.. وبعد لحظات من انصرافه مزَّق أحمد رجب الكاريكاتير الذي رسمه مصطفى حسين، وبدآ في خلق فكرة الكاريكاتير من البداية لأن لحظات التكوين لم يكن لأحد أن يطلع عليها قبل أن تنضج وتصبح جاهزة للعرض على الناس.

فاجتماعات تحضير الكاريكاتير ليست جلسات «فرفشة» كما يتصور البعض، لكنها أشبه باجتماعات عاصفة، لا مجال فيه للهزار، ففي الخمسينيات كان اجتماع الكاريكاتير بين مصطفى أمين وعلي أمين ورسَّامي الكاريكاتير رخا وصاروخان عاصفًا، وإذا رأيتهم وجدتهم في حالة هَمٍّ وغَمٍّ كأنهم يتفقون علي صيغة نعي ينشرونه في «الأهرام» -على حدِّ تعبير أنيس منصور- مع أنهم كانوا يفكرون في ما يُضحِك الناس ويُوجِع قلب الوزراء!

جلسات أحمد رجب ومصطفى حسين لا تختلف كثيرًا عن هذه الجلسات، بل إن علاقتهما تؤكد نظرية أن «الأقطاب المختلفة تتجاذب»! فعلي الرغم من «العشرة» الطويلة، والصداقة القوية التي تجمع بين القطبين الكبيرين فإن كلاهما يختلف تمامًا عن الآخر، فأحمد رجب ملتزم جدًّا في حياته لدرجة أنك يمكن أن تضبط ساعتك على مواعيد حضوره وانصرافه من أخبار اليوم.

أما مصطفى حسين فهو يعشق السهر ولا يلتزم بأي مواعيد –على حدِّ تعبيره– ولا يعرف متى نام ومتى يستيقظ، لكنه في الوقت نفسه صاحب ريشة استثنائية.. وأستاذ لم يتجاوزه الزمن.. وإنسان لم يقهره المرض.. وفنَّان وصفه صلاح جاهين بأنه أحسن رسَّام في مصر.. فهو صاحب قدرات خاصَّة جعلت أجيالاً كاملة لا تعرف رسَّامًا سواه ولا تتذوق الكاريكاتير إلاَّ إذا كان بريشته، لذلك كان ارتباطه بأحمد رجب معجزة شاء القدر أن تكون ما تبقى لنا من زمن المعجزات الصحفية الذي لم نلحق به.

فكلاهما حالة فريدة تستحقُّ أن نقف أمامها طويلاً لنعلم سرَّ الخلطة التي جعلت اثنين بهذه الموهبة والقدرة الخارقة يذوبان معًا، فتشعر أن ريشة مصطفى حسين تفكر وعقل أحمد رجب يرسم!

قصة التعاون بين أحمد رجب ومصطفى حسين بدأت في عام ١٩٧٤ عندما صدر قرار من الرئيس أنور السادات بالعفو عن الأستاذ مصطفى أمين بعد أن قضى تسع سنوات في السجن وقرَّر تعيينه مشرفًا على دار أخبار اليوم، ليبدأ رحلة إعادة هذه الصحيفة الكبيرة إلى مكانتها مع توأمه الذي عاد من منفاه الاختياري في لندن، وكانت أول فكرة

خطرت على بال التوأم هي عمل كاريكاتير يومي يكتبه أحمد رجب ويرسمه مصطفى حسين.

ويروي مصطفى امين قصة بداية الكاريكاتير اليومي على صفحات الأخبار بقوله: «لاحظت أن الأخبار تنقصها الصور الكاريكاتيرية، وعلى الفور فكرت في عمل كاريكاتير في الصفحة الأولى، وآخر في الصفحة الأخيرة، و لم يطُل تفكيري كثيرًا في الفنان الذي سوف يحقق لي الهدف الذي أنشده.

إنه أحمد رجب، تلميذي الذي بدأ محرِّرًا في مجلّة الجيل، وكان أسلوبه الساخر لافتًا للنظر للوهلة الأولى، وقد شجَّعتُه في البداية أن يقوم برسم الكاريكاتير لكنه لم يكن مستعدًّا لذلك، وأكد لي أنه مستعدّ لإعطاء الأفكار للرسَّامين وهم يقومون بتنفيذها، لكنني بدأت أفكر في رسَّام موهوب ينفِّذ أفكار أحمد رجب، وعرفت أن عندنا رسَّامًا يعمل بالأخبار اسمه مصطفى حسين يقوم برسم القصص، واخترته لكي ينفِّذ الفكرة، وبالفعل بدأ التعاوُن بينهما، وفوجئت في نهاية الشهر الأول بأن توزيع الأخبار قد زاد ١٠٠ ألف نسخة!».

شهادة الأستاذ مصطفى امين الأب الرُّوحي لكاريكاتير الأخبار كانت مهمة قبل أن نذهب إلى عالم ثنائي الكاريكاتير الأشهر أحمد رجب ومصطفى حسين صاحبَي أشهر رسومات كاريكاتير عرفتها مصر طوال تاريخها، فقد عَملاً معًا على مدى أكثر من ٣٦ عامًا، و لم يفترقا سوى ست سنوات فقطَ لكنها كانت كأنها ستون عامًا على القُرَّاء الذين كانوا يعرفون يوم السبت بكاريكاتير الثنائي أحمد رجب ومصطفى حسين، لكن شاء القدر أن يعودا مرة أخرى للعمل معًا بعد أن زالت أسباب

الخلاف الذي نشأ بينهما في نهاية عام ٢٠٠٣، وذلك عندما علم أحمد رجب بمرض صديق عمره مصطفى حسين، ويومها نَسيَ الكاتب الكبير كل أسباب الفراق، وتذكر الأيام الجميلة والذكريات الطَيبة واتصل برفيق كفاحه وهو على فراش المرض.

ويروى مصطفى حسين تلك الواقعة بقوله: مرضتُ بالسرطان، وكانت حالتي تسوء كل يوم عن الذي سبقه، لعدم توافر العلاج الذي احتاج إليه، فدخلت في غيبوبة، ووقتها تَدَخَّل أحمد رجب وقلب الدنيا من أجلي وطلب من المسؤولين أن يأمروا بسفري إلى الخارج، وعرفت أنه كتب «عقلي وقلبي وكل مشاعرى خارج السيطرة، لأن إنسانًا من أعز الناس يقف الآن على حافة الحياة.. وأتوسل إلى الله أن لا يغيب عن ناظري.. مصطفى حسين الذي قاسمني أعنف معارك الصحافة يخوض الآن –وحده– آخر معارك العمر دفاعًا عن الحياة.. صَلوا معي من أجل مصطفى حسين»، وقال أيضًا: «إنني أكتب هذا العمود كل يوم بعد إجازة قصيرة من فكر ضبابي شارد مع المنعطف الذي يجتازه مصطفى حسين».

ويضيف حسين قوله: عندما سافرت للعلاج في لندن كان يتصل بي باستمرار، وهذه مسألة مكلفة ماديًا ومعنويًا، لكن مكالمته كان لها أثر بالغ في نفسيتي، فأنا طريح الفراش بلا حول ولا قوة لمدة أربعة أشهر، وكان المنظر الذي أشاهده من الحجرة لا يتغير، مما كان يُشعرُني بالكآبة والرتابة، لكن أحمد رجب هوَّن عليَّ ما قاسيتُ خلال فترة المرض.

لذلك كان من الطبيعي عند عودتي أن اعتذر له وأقول: «سامحني يا أحمد.. أنت أحسن مني»، فعادت علاقتي به أفضل مما كانت عليه.

انتهى كلام مصطفى حسين، لكن لن تنتهي أبدًا أسطورة هذا الثنائي الاستثنائي الذي لا يمكن تكراره، فقد أبدعا معًا شخصيات لا يمكن تجاوُزُها، والفرق بينها وبين أي شخصيات أخرى هي أنها «من لحم ودم»، فلا بد أن تكون قابلتَها عشرات المرات وجلستَ معها، واصطدمتَ بها، وتشاجرتَ معها أيضًا!

كمبورة

شخصيات أحمد رجب ومصطفى حسين تعيش بيننا، ونعرفها جيدًا، ونحفظ طريقتها عن ظهر قلب، ونتعامل معها بشكل يومي.

فعندما تذهب إلى مصلحة حكومية لا بد أن تقابل «عبد الروتين»، وحين تفتح التليفزيون تجد «كمبورة» و«مطرب الأخبار»، وعندما تذهب إلى الإستاد ترى «كابتن أوزو»، وعندما تنزلِ إلى الشارع تصطدم بـ«الكحّيت» و«قاسم السَّمّاوِي» و«عزيز بك الأليت» و«علي الكومندة» و«عبده العايق» و«جنجح»، وإذا ذهبتَ إلى قريتك وجدت «فلاّح كَفْر الهناذْوَة» في انتظارك.

«عبد الروتين» هو موظف الحكومة الذي يتفنن في تعطيل مصالح الناس، فهو مثل «ختم النسر» تجده في كل زمان، ولو عدنا إلى كاريكاتير أخبار اليوم عام ٧٤ لوجدنا أنه يصلح لنشره الآن دون أي تعديل.

فمثلا يقول: «أيوه يا سيد.. أنا عارف الصحوة الكبرى يعني إيه.. بس ما جالناش كتاب دوري يقول لنا الصحوة الكبرى الساعة كام».

ونفس الشيء ينطبق على «كمبورة»، الشخص الذي وُلد في عصر الانفتاح، وكان يتاجر في كل شيء، فمرة تجده تاجرًا للأغذية الفاسدة وأخرى تراه يبيع أفلامًا رخيصة، وأحيانًا يتحول إلى سمسار أراض مسروقة، فهو رجل يتحدث لغة «الجنيه غلب الكارنيه»، ويتعامل مع المرأة بنفس الطريقة التي يستخدمها في تجارته غير المشروعة. والطريف أن هذه الشخصية ليست من وحي خيال أحمد رجب لكنه قابلها في حيّ بولاق عندما كان «كمبورة الأصلي» مرشحًا نفسه في انتخابات مجلس الشعب، وكانت دعايته تغطي كل مكان وكان يصرف أموالاً لا حصر لها، رغم أنه يرفع شعارات «الحق والعدل والوطنية»، وبهذه الطريقة اكتسح الدائرة... واتضح أن هدفه الحقيقي من هذه الدعاية هو الوصول إلى «الحصانة»... ونجح كمبورة في ما أراد، ووصل إلى مجلس الشعب!

ويتحدث أحمد رجب عن «كمبورة» بقوله: اسمه الكامل غير معروف، يقال إنه عبد الله كمبورة وفي قول آخر سليم كمبورة وفي قول ثالث خليل كمبورة، وبين كل هذه الأسماء وغيرها اضطرب كومبيوتر أصحاب السوابق واختلت ذاكرته إلى أن فوجئ الكومبيوتر والمشرفون عليه ذات صباح بأن كمبورة أصبح اسمه صاحب الحصانة السيد العضو كمبورة بيه.

ويضيف رجب: «منذ سنوات زارني المستشرق المجَريّ البروفيسور أرنو يوهاس -المستشار الثقافي بسفارة المجر- وكان في صحبة الأديب الصديق جمال الغيطاني، وقال لي: أخبرَني الأستاذ جمال أنك مبتكر شخصية كمبورة، ولذلك جئت أستفسر عن تلك اللغة الغريبة التي يتكلم بها كمبورة، فإنني لا أفهمها رغم أنني متخصص في اللغة العامية المصرية.

قلت للبروفيسور يوهاس: ليست مشكلتك وحدك يا سيدي، فإن المصريين أنفسهم لا يفهمون لغة كمبورة، فهي لغة زمن الانفتاح التي ابتدعت ألفاظ الأرنب والنُّص أرنب والباكو والأستيك والتمساحة والخنزيرة، وأصبحت تتكلم في ما بينها بألفاظ وتراكيبَ غريبة تمامًا كما يتكلم النشَّالون عَلَنًا بلغتهم الخاصَّة أمام الضحِية دون أن يدري الضحية أن نشَّالاً يبيعه لنشَّال آخر».

إننا في نظر كمبورة قوم من «الكروديات» والبُلْه الذين مكَّنوا له من أن يتحول من مُجرم صعلوك إلى مُجرِم وجيه ذي جاه وسلطان يتعذر علينا بعد فوات الأوانَ أن نعاقبه على جرائمه في حقِّنا، فقد أصبح فوق العقاب، أصبح سيدنا ومولانا وصاحب حصانة وذات مَصُونة لا تُمَسُّ!

في ظلِّ نجومية كمبورة كانت على الساحة شخصيات أخرى لكنها تفضِّل أن تكون بعيدة عن المجتمع، مثل «عزيز بك الأليت» وهو رجل ثري، مرفَّه، لا يعرف شيئًا عمَّا يحدث حوله، وقد وقَعت عين أحمد رجب ومصطفى حسين عليه، وقرَّرا أن يقفا أمام هذا النموذج الذي يمثِّل فئة من الناس تعيش في مجتمع لا تعرفه، ولا تشعر بأوجاعه ولا تشارك في حلِّ مشكلاته، وتظنُّ هذه الفئة أنها تملك الدنيا بـ«فلوسها»، فهذا الرجل كان عضوًا في نادي الجزيرة، وما أغضبه بعد هزيمة ١٩٦٧ أن استيراد خرطوش الصيد توقف، ولن يستطيع أن يمارس هوايته في صيد البط في محافظة الشرقية.

وعلى النقيض ابتكر الثنائي شخصية «الكُحِّيت»، هذا الرجل الذي ينطبق عليه المثل الشعبي «أقرع.. ونُزَهِي»، فهو فقِير، بل يكاد يكون مُعدَمًا، لكنه مُتَعَالٍ ويرى نفسه كأنه «عزيز بك الأليت»، ويتعامل مع

الناس بنفس الغرور الذي يتعامل به عزيز بك، فيقول مثلا لزوجته: «توم إيه وبصل إيه وبطاطس إيه اللي أسعارها ارتفعت يا وليّة؟! ما تشوفي الخيبة التقيلة دي.. دي مابقتش بلد الواحد يعيش فيها.. قال إيه مفيش أي تخفيض على جمارك السيّارات».

مثلما انتشر نموذج الكُحّيت انتشرت شخصية «أبو العُرّيف»، الرجل الذي يدّعي مقدرته على حلّ كل الأزمات لكن كانت حلوله دائمًا سببًا في مزيد من المشكلات، فأطلق عليه أحمد رجب اسم «علي الكومندة»، وهو مدير كبير يدّعي مقدرته على حل المشكلات لكنه «يزيد الطين بلة»، فهو يحل مشكلة عدم وصول المياه إلى الأدوار العُليا بصناعة مزيد من «الحِلَل» لاستخدامها في نقل المياه، إنه ببساطة يعقّد المشكلات في الوقت الذي يتصور فيه أنه خلاّل المشكلات.

وعلى الجانب الآخر كانت شخصية «قاسم السّمّاوي»، قد بدأت تسطع وهو رجل «غلاوي» يكره مَن حوله ويحقد عليهم حتى في مصائبهم فتجده يقول: «اللي بيموت في حرب الخليج أهله بيقبضوا تعويض شيء وشويات.. جاتنا نيله ف حظنا الهباب»!

في ظلّ موجة عاتية من أنصاف المطربين ظهر «مطرب الأخبار»، وهو شخص يتصور أنه فنان موهوب، ويذهب إلى الحفلات باعتباره مطربًا شهيرًا ويقف أمام الناس ويتحدى إرادة الجميع رغم أنه صاحب حنجرة مزيّفة ولا علاقة له بالغناء، لذلك كان يتعرض للضرب في كل الحفلات ويقول: «في الكار بتاعنا زَرَقان اللحم من أمراض المهنة»، لكن الغريب أن هذا المطرب لم يتعرض للضرب في الواقع، بل إنه انتشر كالنار

في الهشيم وأصبح في غفلة من الزمن علامة هذا العصر الفارقة، وضيفًا دائمًا على القنوات الأرضية والفضائية، ونجمًا مُهِمًّا لا يمكن استبعاده في الحفلات الكبيرة.

لكن الشخصية الكاريكاتيرية الأشهر والأهم والأطول عمرًا على صفحات أخبار اليوم ظهرت في عصر الرئيس مبارك وتحديدًا في فترة الدكتور عاطف صدقي رئيس مجلس الوزراء الأسبق، شخصية «فلاح كَفْر الهناذْوَة»، هذا الفلاح الفصيح الذي يجلس كل يوم «سبت» مع كبار المسؤولين وينقل إليه شكاوى الناس وهمومهم وآراءهم في الحكومة... إلى أن وصل إلى رئيس الجمهورية.

وفلاح كفر الهناودة شخصية حقيقة، قابله أحمد رجب في قرية الهناذْوَة التابعة لمركز إمبابة، ليصبح «هنداوي» أشهر فلاح في مصر، فهو يقابل رئيس الوزراء بلا سكرتارية ولا موعد مسبق ويناقشه في سياسة حكومته ويُفضِي إليه بكل ما في صدره.. ما يعجبه وما لا يعجبه.

ويقول عنه أحمد رجب: فلّاح كَفْر الهناذْوَة هو ممثِّل الشعب المصري عند الحكومة، فقد كان حُكّامُنا زمان هم الذين يتكلمون والشعب يسمع، وكانت حرية الرأي من حقّ الحاكم وحده، واليوم يتكلم الشعب ممثَّلاً في فلّاح كَفْر الهناذْوَة، ورئيس الوزراء يسمع. لكن الفلّاح توقف عن الحديث لسنوات بعد أن حاول رئيس تحرير أخبار اليوم مصادرة حُرِّيته في التعبير وتغيير كلماته التي اعتادت أن تخرج من القلب بلا رقيب لتصل إلى القارئ بلا وصاية.

لكن مع وجود شخصية «فلاّح كَفْر الهناذْوَة» كان هناك أيضًا «كابتن أوزو»، وهو لاعب كرة نعرفه جيدًا وشاهدناه عشرات المرات سواء في الملعب أو خارجه، فهو يسهر ويشرب ويستنزف نفسه ويذهب إلى المباريات في حالة انعدام وزن لكنه يُصرُّ على اللعب مهما كانت النتيجة، لأن الجمهور يريد أن يرى «لمساته»، وهذا اللاعب رغم أنه ما زال يعيش معنا في الواقع فإن عمره كان قصيرًا على صفحات أخبار اليوم.

أما «عبده العايق» فهو رئيس حي ينطبق عليه المثل القائل: «فاقد الشيء لا يعطيه»، فرغم أن هيئته تثير السُّخْرِيَة وقد يقف على وجهه الذباب ولا «ينشّه»، فإنه يُصِرُّ على أنه عبده العَايق.

لكن هناك «عبده» آخر ابتكره الثنائي أحمد رجب ومصطفى حسين هو «عبده مشتاق»، وهو موظف كبير وصولي كلنا نعرفه، ونحفظ طريقته، ونراه في أماكن كثيرة وهو ينتظر دوره في أن يصبح وزيرًا في يوم من الأيام، لذلك ينصحه صاحب المقهى الذي يجلس عليه ويقول له: «باقول يا عبده بيه.. بدال القعدة دي بيقولوا فيه قهوة اسمها قهوة الوزرا.. بينتظروا فيها.. إذ ربما يفتكروك».

بجانب «عبده مشتاق» ظهر أيضًا «عبده بالنفر» سائق التاكسي الذي يهوى تعذيب الرُّكّاب ويسير في الطريق كأنه بمفرده، ربما من أجله تم تغيير قانون المرور، لكنه رغم ذلك لم يلتزم وكل ما فكر فيه هو التحايل عليه أو أن يبيع التاكسي!

الفصل السابع

أمسك المارة بشابٍّ بجوار نادي الزمالك وظلُّوا يضربونه وهو يستغيث، ثم توقفوا عن ضربه وأطلقوا سراحه عندما أقسم لهم أنه نشَّال وليس لاعبًا في نادي الزمالك.

صفر

أحمد رجب زملكاوي قديم، وفي الوقت ذاته أهلاوي صميم!

فكُرَة القدم –عنده– ليست سوى مادّة ثرية للسخرية رغم إنه يحبها ويعرف لاعبيها، ويشاهد مبارياتها، ويتابع نتائجها، لكنه لم يفكر مُطلقًا في تشجيع إحدى فرقها، ففي الخمسينيات والستينيات كان يتعاطف مع الزمالك بحكم صداقته بالكابتن «عصام بهيج»، وكتب عن هذه الفترة يقول: «كنت من أكبر مشجّعي نادي الزمالك ثم حدث ما جعلني –في هذا الزمان البعيد– أن أكفّ عن هذا «التَزَمْلُك» إذ تَعَرّض النادي لسلسلة من الهزائم المشينة على يد أندية صغيرة مثل نادي «فابريكة المكرونة» ونادي شركة «النداغة»، الأمر الذي كاد يصيبني بكافة أمراض ضغط الدم والأعصاب، وقد حدث أيامها أن أمسك المارة بشابٍّ بجوار نادي الزمالك وظلوا يضربونه وهو يستغيث، ثم توقفوا عن ضربه وأطلقوا سراحه عندما أقسم لهم أنه نشّال وليس لاعبًا في نادي الزمالك.

ثم جاءني الأصدقاء الزملكاوية لأعود إلى حظيرة الزمالك مشجّعا، فبرقت في رأسي فكرة جديرة بالتنفيذ: لماذا لا أساوم كما يفعل بعض

اللاعبين بناديهم؟ لماذا لا يدفع لي الزمالك مبلغًا محترَمًا حتى لا أنتقل إلى ناد آخر أشجِّعه؟ لقد حان الحين ليحصل كل مشجِّع على حقوقه، فالمشجِّع يُعَدُّ من أهمّ أطراف اللعبة وأبخسهم حظًا ورزقًا، ثم إنه معرَّض -في أثناء المباريات- للإصابة بكافة الأمراض ابتداءً من الضغط والسُّكر إلى الانهيار العصبي والسكتة القلبية، ولا بد أن يكفل له اتحاد الكرة حقوقه ويوفِّر له شقَّة متواضعة على النيل، وسيارة خاصَّة صغيرة «مرسيدس»، ومعاملته معاملة اللاعب في المكافآت والأجور(!)».

الفصل بين أرض الواقع ووحي الخيال عند أحمد رجب مسألة تحتاج إلى مفكر، فهو يكتب مقالاً ينتمي إلى الأدب أكثر منه إلى الكتابة الصحفية، والسُّخْرِيَة هي سبيله للوصول إلى أهدافه، فرغم أنه كتب عن تشجيعه الزمالك في ذلك الزمن البعيد فقد عاد ليؤكد انتماءه إلى الأهلي قائلاً: أبحث عن الجهة التي يغيِّرون فيها الجنسية الكرَويَّة، لكنني مستعد للاحتفاظ بجنسيتي الأهلوية إذا أدخل الأهلي نظام الاحتَراف للمشجِّعين، فمن العسير الآن مشاهدة وتشجيع الأهلي إلا بمرتَّب محترَم وبالدولار...

لكن إدارة الأهلي لم تستجب لمطالب الكاتب الكبير!

فقرَّر أن يتوقف عن التشجيع قائلاً: بعد التنازل عن الجنسية الأهلاوية إثر هزائم الأهلي، أفتقد الآن شيئًا أشجِّعه وأتحمس له، وأفكر في الانضمام إلى الحزب الوطني الذي لا يُقهَر، فهو الفائز الأول في مباريات الانتخاب، وهو المنفرد بالملعب، وهو حبيب الناس بطل الدوري والكأس.

من هنا قرَّر أحمد رجب أن يكون «زمهلاوي» -مثل صديقيه عبد الوهاب وعبد الحليم- فهو يرى أن مشروع كفالة حقوق المشجِّع كان

يمكن أن ينصف تلك الفئة البائسة التي تظلّ تعوي في الملاعب وفاءً وحُبًا في النادي ولاعبيه! لكنه لم يجد حماسة من الزملاء المشجّعين -على حدِّ تعبيره- فاستقرَّ رأيه على عدم تشجيع أي ناد والاكتفاء بالتعاطُف مع المنتخب القومي الذي لم يشجّع سواه و لم يجلسْ أمام التليفزيون لمشاهدة غير مبارياته الدولية.

من الصعب أن تصدِّق أن صاحب هذه الثقافة الكُرَوِيَّة الكبيرة لم يسبق له تشجيع أي ناد طوال حياته، لكن عندما تعرف رأيه في كرة القدم المصرية يمكن أن تصدقَ و«تبصم بالعشرة» أنه لا ينتمي إلى أي ناد مصري في حياته، فقد كتب يقول: في مونديال المكسيك سنة ٨٦ كتبْتُ أنني شاهدت في التليفزيون لعبة لطيفة اسمها كرة القدم، ويا ريت نُدخلها في بلادنا، وبعد متابعة مباريات كأس الأمم الأوربية ٢٠٠٠ والانبهار بفن الكرة الممتع، فكرت في القائمين على شؤون الكرة في بلدنا وملايين الدولارات التي أنفقوها هدرًا، وعدلت في آخر لحظة عن تقديم بلاغ لمكتب مكافحة النصب.

لذلك كل الفرق المصرية على اختلاف مستوياتها لا تُرضي طموح أحمد رجب لأنهم لا يستطيعون الجري ٩٠ دقيقة.. وينتظَرون نهاية المباراة بفارغ الصبر، لذلك كتب يقول: بعد مشاهدة مباريات يورو البرتغال في التليفزيون، قرّرت إهداء جهاز التليفزيون لمصلحة السجون للانتفاع به كعقوبة في زنازين الحبس الانفرادي.

ويفسّر أحمد رجب سرَّ الفارق الكبير بين كرة القدم عندنا، وكرة القدم في أي دولة محترَمة قائلاً: كرة القدم المحترَمة علم وفنٌّ وتخطيط، وهذا كله يحتاج إلى عقل، ولذلك تحتفظ الفرق المحترمة بمستواها، أما

المنتخب عندنا فهو قد يهزم البرازيل مرة، وقد ينهزم من نادي كفر بردع أربعة صفر، فهو يلعب بالحظ، والحظ لا يحتاج أبدًا إلى عقل.

ويحلِّل ساخرًا سر ارتفاع معدَّل أعمار لاعبي المنتخب بقوله: يعتقد البعض أن سن الستين هي السن المناسبة للاعتزال، رغم أن هذا غير صحيح، فلا شك أن سن الستين تُعتبر سن الخبرة، وهذا يبدو واضحًا في أعضاء الفريق القومي لكرة القدم.. فهناك شائعة تقول إن أحد لاعبي المنتخب كان له ابن توُفي متأثرًا بالشيخوخة.

أحمد رجب كان حاضرا بقلمه في كل المناسبات الكُرَويَّة، فعندما وقعت نكسة ٢٠٠٤ الكرَويِّة وحصلنا على «صفر المونديال» الشهير (بعد أن تقدمنا بملف للاتحاد الدولي لكرة القدم للحصول على تنظيم كأس العالم ٢٠١٠ الذي فازت بتنظيمه جنوب إفريقيا) قال: كل الكوارث الكبرى من هزيمة ٦٧ إلى كارثة المونديال سببها الكذب. باعوا لنا الكذب وقبضوا ثمنه ٦٠ مليون جنيه من لحم الشعب الفقير، وإذا كان وزير الشباب لا يزال في منصبه فذلك لأن الكذب في بلدنا لا عقاب عليه دون العالم أجمع، وإذا كانت الكوارث القومية تتعاقب علينا في ظلِّ هذه الحكومة فقد أصبح من الضروري تطعيمنا ضدّ النَّحْس.

وفي اليوم التالي قال: «شكرا كثيرًا لصفر المونديال.

إنه صفر ضخم تَعَدَّى حقل الرياضة ليكشف عورات حياتنا كلها، موقعنا من العالم المتحضر وتخبُّط خُطانا وحجم الخديعة التي نحياها والكذب الرهيب الذي أصبح عملتنا المفضَّلة حُكامًا ومحكومين.. شكرا كثيرًا للصفر الذي أيقظنا قبل أن يسقط البيت فوق رؤوسنا إن كان قد أيقظنا».

لم يكتف أحمد رجب بما كتبه عن أكبر وأشهر صفر في تاريخنا لكنه قال ساخرًا: حاولت أن أقنع «سيد المنجّد» أن د.جودت الملط رئيس جهاز المحاسبات سوف يكشف لنا أين ذهبت ملايين ملف المونديال، ولكن سيِّد مصمّم على عمل محضر في الشرطة ضدَّ علي الدين هلال.

السياسة كانت حاضرة في كل ما يكتبه أحمد رجب وتحديدًا في ما كتبه عن كرة القدم، فقد سخر من كثرة البرقيات التي يرسلها المسؤولون عن الرياضة إلى الرئيس عَقِبَ كل بطولة بقوله: لا أعرف عدد برقيات التهاني التي أرسلها الدكتور عبد الأحد جمال الدين عقب المباريات الكرَويَّة، لكنني سمعت أنه سوف ينتهز عدم وجود مباريات دولية في الوقت الحاضر ومن ثَمَّ موسم ركود برقيات التهاني فيقوم بجمع برقيات التهاني التي أرسلها ليُصدِرَها في كتاب!

أحمد رجب جمع بين صداقة نجوم الفن ونجوم الرياضة، فقد كتب مذكرات عصام بهيج وكشف فيها عن انتماء عبد الحليم حافظ إلى الزمالك بقوله: كان عبد الحليم زملكاويًّا، لكنه انتقل إلى تشجيع الأهلي تحت ضغط الجماهير، وأحزن ذلك كثيرين من عُشّاق الزمالك، حتى كانت مباراة الزمالك والأهلي عام ١٩٦٠ التي فاز فيها الزمالك ٣-١، ويومها دعا فريد الأطرش الفريقين إلى حفل في بيته، ويبدو أن حليم شعر بتأنيب الضمير، وفي اليوم التالي استغل عصام بهيج الموقف وتَوَجَّه إلى منزل حليم يقنعه بالرجوع إلى صوابه، وتحت وطأة هزيمة الأهلي وحزن حليم أحضر ورقة وقلمًا وكتب خطابًا إلى رئيس نادي الزمالك يخبره أنه عاد إلى رشده، ونشرت الصُّحُف هذا الخطاب وقتها وأثار ضجَّة كبيرة، لكنها لم تجعل حليمًا يتراجع عن موقفه ولم يذهب لتشجيع الأهلي رغم انتصاراته.

أحمد رجب لم يكُن فقط مرتبطًا بعصام بهيج، بل كان مُحبًّا أيضًا للمعلّم حسن شحاتة عندما كان لاعبًا، وقال عنه: لو كان حسن شحاتة ورقة بنكنوت فأنت يمكن أن تفكّ هذه الورقة لعشرة لاعبين عالميين، فهي ليست ورقة بنكنوت عادية، بل هي ورقة لها غطاء ذهبي من المواهب النادرة والفن الخلاّق.. ولكن عيب حسن شحاتة أن وراءه في الملعب دائمًا لاعبًا مهمته كسر حسن شحاتة وضربه ومسكه وعرقلة جهوده، وهذا اللاعب هو إدارة نادي الزمالك[١٤].

وعندما ترك حسن شحاتة الملعب واتجه للتدريب ظلّ أحمد رجب عند رأيه فكتب عند تولّيه منصب المدير الفني للمنتخب قائلاً: «حسن شحاتة لاعب كرة خمس نجوم وكان -فوق مهاراته- يتميز بأنه لاعب مسؤول، وعندما أصبح مدربًا لبعض النوادي حقّق نجاحات متوالية يساندها إحساس عالٍ بالمسؤولية، وهو أفضل وأحسن مدرب للمنتخب القومي، لكني أخشى الإطاحة به بعد انتخاب الدهشوري أو زاهر الشهيرَين بريًّا وسكينة.

لكن عندما سألت أحمد رجب عن رأيه في حسن شحاتة المدرِّب بعد الهزيمة المفاجئة من منتخب النيجر في تصفيات كأس الأمم الإفريقية عام ٢٠١٠ قال: حسن مدرِّب عظيم استطاع أن يحصل على كأس الأمم الإفريقية ثلاث مرات متتالية، لكن الغرور بدأ يتسلل إلى قلبه، ومن ثَمّ من الصعب أن يكرِّر إنجازاته.

[١٤] عمر طاهر: زملكاوي، دار أطلس، ص١٨٨.

مثلما لم يذهب أحمد رجب لتشجيع الزمالك بحكم الصداقة، لم يفكر أيضًا في تشجيع الأهلي رغم الانتصارات، بل إنه كتب في الستينيات في مجلة «آخر ساعة» «حديث لم يحدث» مع صالح سليم عندما أصرَّ على الاستمرار في الملاعب رغم تجاوُزه سنَّ الاعتزال، وقال: إنه يلعب من العصر الفاطمي!

صور كانت مقلوبة!

رسم أحمد رجب صُوَرًا مقلوبة لشخصيات تعيش بيننا، لكن بمرور الوقت صار المقلوب «معدولاً»، وأصبحت الشخصيات التي كانت من وحي الخيال حقيقة واقعة، فالمشجِّع المتعصب لم يعُد شيئًا غريبًا، بل أصبح الغريب هو أن تجد في المدرَّجات مشجِّعًا يتحدث عن الرُّوح الرياضية ويطلب من زملائه احترام الفريق المنافس، وعدم سبِّ لاعبيه «عمّال على بطّال».

وهذا سرُّ عبقرية أحمد رجب، فهو يقرأ «الطالع» بعين الفيلسوف، ففي الستينيات رسم صورة «واحد متعصب كروي» وتحدث بلسانه قائلاً:

«مشجِّعو نادينا لا يفهمون في أصول التشجيع الكُرَوِيّ، يجلسون في المباريات مكتَّفين بالانفعال وبس.. هذه منتهى المسخرَة، لذلك قرَّرت تكوين رابطة مشجِّعين أصولية مكوَّنة منِّي ومن عبده جاعورة وفهمي بيبس وعزُّوز شيلوا الرفّ وحنفي النشانجي، واتفقنا على أن نشجِّع نادينا

المحبوب التشجيع الأصولي المجدع. بدأنا نشاطنا اليوم بعدما دخلت الكرة في شبكتنا وكأنها رقبة قزازة تغرس في قلوبنا.

هنا صرخ عبده جاعورة: بي بي بي، للاستهزاء بالولد الفرْود اللي حطّ الجول الله يخرب بيته، وقد رددنا وراء عبده جاعورة هذا الهتاف الاستهزائي الذي لم يشاركنا فيه مشجِّعو نادينا الباردون، ثم تَسَلّقَ عَزُّوز أكتافنا وراح يهتف: شيلوا الرف.. شيلوا الرف، ثم أخذ محمود الشُّضَلي مكانه فوق أكتافنا ليشير إلى الولد الفرْود مرّة والرّف مرة أخرى مردِّدًا: العبيط أهه.. العبيط أهه.. كل هذا ومشجِّعو نادينا ساكتون كأن على قلوبهم مراوح، فكان لا بد من اتخاذ إجراء سريع، وفعلاً بحث حنفي النشانجي عن طوبة سمينة نشّنها في دماغ الرف المْوالس الذي كان يمكن أن يحسب الكور أوف سايد أو آوت أو أي حاجة، ووقف فهمي بيبس يصيح كالمجنون: ناولني واحدة كبيرة ولذيذة، فناوله عبده جاعورة زجاجة كوكا من أرض المدرّج فاشتدّ هياجه وهو يصيح: قلنا كبيرة ولذيذة موش كوكا، خليني أفتح قرنه، وعندئذ لمح مشجِّعو نادينا الصامتون زجاجة الكازوزة في يد جاعورة، فتسلل أحدهم ليهدِّئنا في فلسفة كدابة: يا جماعة عيب كده.. الرياضة غالب ومغلوب، فزغده عَزُّوز شيلوا الرف قائلاً: إنت باين عليك زملكاوي لمض، فأقسم الرجل أنه أهلاوي، وراح يردِّد أن الرياضة قال إيه.. غالب ومغلوب!

فردَّ عليه حنفي النشانجي مع زغدة شديدة: إحنا ما نتغلبش يا حدق.

وبرغم ذلك وقف الرجل أبو دم بارد يُلقي علينا محاضرة فارغة عن حاجة اسمها الرُّوح الرياضية، وهنا أعجبني محمود الشُّضَلي الذي قال له مع زغدة في بطنه:

- أنت روحك رياضية؟

- أظن كده.

- طيب وريني بقى روحك الرياضية.

وهجمنا على الرجل وضربناه علقة محترمة، وأخرج محمود الشُّضَلي مطوة حامية من جيبه وصمّم على أن يذبح الرجل ويطلّع رُوحَه ليرى ما هو شكل الرُّوح الرياضية التي قرفونا بالحديث عنها، غير أن بقيّة مشجّعي نادينا في المدرَّج راحوا يهدّئون من ثورتنا حتى رأينا رجال الشرطة مقبلين علينا فهربنا في الهوجة تاركين مشجّع نادينا أبو روح رياضية ممدَّدًا على الأرض في انتظار طلوع روحه الرياضية!

أي كروي -مثلي- ذهب إلى الاستاد عشرات المرات رأى صورة كربونيّة من «جاعورة» و«النشانجي» و«الشُّضَلي»، ذلك المشجّع الذي يمكن أن يضع كلمة النهاية في مشوار حياتك إذا اختلفت معه في الرأي، وهو ما حدث عندما قامت مجموعة من جماهير النادي الأهلي بـ«حرق» مشجّع زملكاوي -على اعتبار أنه يستحقّ الحرق لكونه يشجع ناديًا لا يفوز- لتردّ عليهم جماهير الزمالك بمحاولة اقتحام النادي الأهلي وضرب كل مَن في طريقهم لمشاهدة مباراة في كرة اليد.

لكن لكي يوجد هذا النموذج من المشجّعين لا بد من وجود لاعب يحرّضهم!

هذا اللاعب لا تحتاج إلى فترة طويلة للتعرُّف عليه، وتذكُّر اسمه، فهو ضيف على أغلب الأندية المصرية -إن لم يكن كلها- ولعب للمنتخب القومي أكثر من مرّة، لكن مسيرته كانت دائمًا ما تنتهي قبل أن تبدأ،

فطموحاته توقفت بعد أول مباراة تألق فيها، وقدراته لم تمكِّنه من الاستمرارٍ في الملاعب لأنه اختار طريق «اللي يروح مايرجعش»، وهو طريق يفضّله عددٌ كبيرٍ من لاعبي مصر بعد أن يحصلوا على «المليون الأول» ويصبحوا ضيوفًا على البرامج بكل أنواعها ويتم الحديث معهم باعتبارهم نجومًا كبارًا بدلاً من التعامل معهم على أنهم مشروعات للاعبين يمكن أن يكونوا كبارًا أو يظلوا كما هم «عيالاً»!

لذلك انتشر نموذج «فسيخة»!

هذا اللاعب الذي صار بطلاً دون أن يفعل شيئًا، لذلكٍ رسم لنا أحمد رجب صورة من يومياته –يوم بيوم– وتحدث بلسانه قائلاً:

«اسم فسيخة أصبح اليوم على كل لسان!

اليوم أصبحت من نجوم الكرة بعد أن أحرزت هدفًا في فريق «كومبارسيتا» الإسباني الذي هزمنا ٩–١.

ولولاي لكانت الهزيمة ساحقة يعني ٩– صفر.

إنني لن أنسى اللحظة التي طلعت فيها على «بليخا» ملك حراس المرمى في العالم بعد أن رقّصت الباكات!

السبت:

وقف الملعب كله.. صرخ محمد لطيف: هو والجول.. هو والجول، فسيخة وبليخا.. فسيخة وبليخا.. فسيخة وبليخا.. واهتزّت جوانب الملعب بالتصفيق والهتاف، ردّد اسمي ٤٠ ألف متفرج في الاستاد مع «سقفة» إيقاع تقليدية: «فسيخة.. فسيخة».. لمعت في وجهي آلات

التصوير.. تَجَمَّعَ حولي الصحفيون بعد المباراة يمطرونني بالأسئلة، وأصبحت فجأة -وأنا ما أزال في الثانوية العامّة- أشهر من الكوكاكولا وعبد الحليم حافظ!

الأحد:

كل صفحات الرياضة في الصُّحُف الصادرة اليوم مليئة بصورة «فسيخة» وأحاديث النُّقَّاد عن «فسيخة»! قال ناقد رياضي إن إحراز هدف في مرمى بليخا -ملك حراس المرمى- معجزة استطاع فسيخة أن يحققها، وقال ناقد آخر إن فسيخة لاعب عملاق ولو عندنا ١١ فسيخة فقط لانتزعنا كأس العالم! وقام ناقد ثالث بعقد مقارنة بيني وبين جارنيشيا.. ناقد رابع وضع عنوانًا عريضًا يقول: «بيليه أصبح أسطورة بعد ظهور فسيخة»!

الاثنين:

أقامت لي المدرسة حفلة تكريم ألقى فيها حضرة الناظر كلمة قال فيها إن المدرسة تفخر بأنني من أبنائها، وأهدوا لي صينية فضية نُقش عليها «إلى فسيخة قاهر بليخا».

الثلاثاء:

دعتني الراقصة المعروفة «سنيّة بمبوزيا» إلى الحفلة التي أقامتها بمناسبة عيد ميلادها لأنها من أشد المعجبين بفني.. شكرتها واعتذرت بأنني يجب أن أنام مبكرًا.

حكيت للاعب الكبير «قباقيبو» حكاية الدعوة، قال لي «قباقيبو» جاتَك ستّين نيلة.. إنت حاتفضل عيل لإمتى؟! وفي اليوم التالي ذهبت تحت تأثير محَاضرة قباقيبو إلى حفلة سنيَّة باي باي.. وجدت هناك «خنفس» و«الجربان» و«سيد المفكّ» من نادينا، و«الكفتجي» و«ودنو» و«المقشاتي» و«محرات» و«الأضبش» و«القرفان» و«البغل» من كبار لاعبي النوادي الأخرى. انتحى بي «سيد المفكّ» جانبا ونصحني قائلا: أوعى تعمل عيّل ياله.. اللي تقدّمه لك الست سوسو بمبوزيا تشربه.. مش هتقول لها ماباشربش.

الأربعاء:

سنية بمبوزيا تكلمني في التليفون كل يوم.

الخميس:

سنية بمبوزيا لم تكلمني اليوم.. شعرت بضيق شديد.

الإثنين:

الويسكي لطيف جدًا لم أكن أعرف أنه شيء مدهش.

الأربعاء:

خناقة مع المدرب لأنني لم أحضر التمرين.

السبت:

وقّعت عقدًا لكي أتولى بطولة فيلم «مفتاح الكرار».. سهرة في منزل النجمة المعروفة توتو كريزانتيم.. انبسطت جدًا.

الأربعاء:

والله قباقيبو عنده حق!

ماذا تعطينا النوادي في مقابل هذه التضحية: لا تأكل لا تشرب لا تدخن، لا تسهر...؟ المجد؟ عندنا المجد والحمد لله إذا لم يكن في الملاعب فقد أصبح في السينما.. طظ في النادي!».

للأسف «فسيخة» ما زال بيننا!

لكنه في حاجة دائمًا إلى شمّاعة يعلّق عليها أخطاءه!

ولا يوجد أفضل من حكم «ماعندوش ضمير» ليمثّل هذه الشمّاعة، وهذا الحكم موجود في كل مباراة، فمن المؤكد أنك شاهدته بدلاً من المرة ألفًا، فهو ضيف دائم على مباريات الدوري المصري، ويوجد بصفة منتظمة في بطولة كأس إفريقيا لأبطال الدوري، فتجده لا علاقة له بالمباراة وأحداثها بل هو مشغول فقط بنتيجتها التي حسمها قبل أن يتجه إلى ملعب المباراة.

لذلك لم تكن الصورة التي رسمها أحمد رجب لـ«حكم دولي جدًا» في عام ١٩٦٥ بعيدة عن الأحداث التي نعيشها بعد قرابة نصف قرن، لو قمنا فقط بتغيير الأسماء وتعاملنا مع اليوميات باعتبارها مذكرات حكم دولي سابق يروي قصته في الملاعب قائلا:

السبت:

عندي ماتش مُهِمّ جدًا يوم الجمعة القادم بين نادي النيل ونادي الفابريكة الرياضي، وصحيح أنني كنت ألعب سنتر فِرْوِد لنادي النيل

في سالف العصر والأوان، لكن بذمتي لا أنا نيلاوي ولا أنا فابريكاوي، أنا حكم محايد جدًا أحِبّ الحقّ وأدوبُ في الحقّ وسيرة الحقّ ولا يهمني زعيط ولا معيط ولا نطاط الحيط.

الإثنين:

التقيت اليوم بأخي وصديقي حبيبي وروح قلبي الكابتن قرقر سكرتير الكرة بنادي النيل، أبدى لي تخوُّفه الشديد من مباراة يوم الجمعة مع الفابريكة، قال لي: لو الفابريكة هزمنا يبقى راح أملنا في الدوري وعليه العوض، وقال إنه متشائم لأن فريق الفابريكة قوي جدًا ويصعد إلى قمة الدوري كالصاروخ برغم أنه ناد صغير وهلفوت وفقران ولا يعطي اللاعب بعد كل ماتش أكثر من شلن في حالة الفوز ونص فرنك في حالة التعادل، وولا مليم في حالة الهزيمة، وقرش تعريفة على كل تمرين.. طبطبت على ظهر قرقر وطيبت خاطره وقلت له: ربنا يجيب العواقب سليمة يا بو القراقير.

الأربعاء:

اطّلعت اليوم على أسماء فريق نادي الفابريكة في ماتش يوم الجمعة القادم.. ولا أدري لماذا شعرت بعدم الارتياح وأنا اقرأ هذه الأسماء.

الخميس:

ذهبت اليوم إلى النادي النيلي أتفقد الاستعدادات لإقامة المباراة.. أطلعني الكابتن قرقر على أسماء الفريق الذي سيلعب ضدّ الفابريكة.. وسألني: فكرك نكسب الفابريكة بالتشكيل ده؟ فاقترحت عليه بعض التعديلات في التشكيل، ووافق على اقتراحاتي.

الجمعة:

يوم عصيب جدًا.. لكن انتهى على خير والحمد لله.

قبل المباراة:

٤٠٠ ألف متفرج في المدرَّجات، كلهم تقريبًا من مشجِّعي نادي النيل وبينهم قلة ضئيلة جدًا من مشجِّعي الفابريكة كانوا يهتفون: "ويكا يا ويكا ع الفابريكة"، لكن هتافاتهم ضاعت في هدير مشجِّعي النيل عندما نزل الفريق النيلي الملعب.

أجريت القرعة وأخذ كل فريق ملعبه وكدت أضرب الصفارة إيذانًا ببدء اللعب، ولكنني فوجئت بالكابتن بابور (٥٠ سنة) يحتضن الكرة ويعبر خط السنتر ويتجه نحو ملعب الفابريكة، وهنا تقدم سوسو (٢٠ سنة) كابتن فريق الفابريكة لمصافحته، ولكن بابور رفض أن يمد يده قبل أن يتعهد الولد سوسو -باسم فريقه- بعدم الخشونة في الملعب، وهنا رد سوسو بمنتهى الأدب -والشهادة لله- قائلا لبابور:

حاضر يا أونكل.. ثم مدّ سوسو يده ليصافحه بحرارة، وإذا بسوء نيَّة الفابريكة يظهر، إذ ما كاد الولد الصايع يضع يده في يد بابور حتى سقط بابور على الأرض مملوخ الذراع من أثر المصافحة القوية، وراح يتلوى من الألم وهو ممسك بكتفه حتى جاءت الإسعاف وحملته خارج الملعب.

.. وبدأت المباراة:

وهنا فكرت بسرعة في أن احتسب بنالتي على فريق الفابريكة باعتبار أن وقت المباراة كان قد بدأ وباعتبار أن المصافحة بين بابور وسوسو

تمت في منطقة الجزاء أمام مرمى الفابريكة، وعلى الفور التقطتُ الكرة ووضعتها في منطقة الجزاء بين احتجاجات من لاعبي الفابريكة وبين تحيات من جمهور النيل.. وتبجح أحمد خرالمبو فطردته من الملعب فورًا وأصبح فريق الفابريكة عشرة!

صمّم القفا -أكبر لاعبي الفريق سنًّا بعد بابور (٤٥ سنة)- أن يشوط ضربة الجزاء.. وشاط.. ولم تتحرك الكرة التي انقض عليها حنكورة لاعب الفابريكة، وفي الوقت نفسه فوجئت بصرخة شديدة من القفا الذي تَبَيَّنَ أنه شاط الأرض لأنه كان من غير نضّارة، فلم يرَ الكرة...

في لمح البصر شاط عبده شكمان -جول الفابريكة- الكرة.. تلقاها الجحش على خط السنتر، مرّرها إلى سوسو، وكنت لا أزال إلى جوار عبده شكمان عندما شعرت بحالة وجوم في الملعب وبوس وأحضان بين لاعبي الفابريكة وتهليل من مشجّعيهم القليلين، وعلى ما وصلت الناحية الأخرى أسرع عبد الحق حامل الراية يقول لي إن سوسو شاط كرة كالقنبلة دخلت مرمى النيل ومزقت الشبكة وخرجت منها على بعد مئة متر وراء المرمى، وإن هذا جون أكيد في النيل.

قلت لعبد الحقّ: والله ماشفتوش.

قال: ده أكيد يا كابتن وحياة دي النعمة.

قلت له: ماشفتوش.. نحسبها أوفسايد.

وأطلقت الصفارة الأخيرة وانتهت المباراة بالتعادل صفر-صفر بين نادي النيل ونادي الفابريكة».

خيال أحمد رجب لا ينطلق من العدم، فهو خيال خصب تغذّيه رؤيته الثاقبة للواقع، فكل صورة رسمها لعالم كرة القدم كانت لها جذور في الواقع، لكنه حاول أن يتجاوزها بخياله الواسع وسخريته البديعة، لكن شاء القدر أن تختفي المسافة الفاصلة بين الحقيقة والخيال، والسبب في ذلك أن أحمد رجب يقف في منطقة وسط بين الأديب والساخر، فهو يكتب حينًا قصصًا أدبية قصيرة يظنُّها البعض مقالات، وقد كنت واحدًا من هؤلاء الذين يظنون أن قصة «بابا جدُّو» هي حكاية جده وأن ما كتبه في كتاب «الأغاني للأرجباني» هو قصة حياته لكنني اكتشفت أني كنت مغفَّلاً، فهو يكتب أدبًا خالصًا مثل كبار الأدباء، لكن الفرق بينه وبينهم أنه يقدِّم أدبًا ساخرًا تضحك عندما تقرؤه، وهذا يختلف عن المقال الساخر الذي يرتبط بقضية بعينها يتخذ فيها موقف التهكم والسُّخْرِيَة من الأحداث.

الفصل الثامن

إنني لا أكتب نكتًا أو لقطات كوميديَّةً، ولكني أنقل بأمانة ما تفعله الحكومة.

١٩٦٨

الخميس ١١ من يوليو ١٩٦٨م

مصر ثائرة، والناس تغلي، والمعارك تشتعل على خط القناة، والمظاهرات الطلابية تهتف لأول مرة ضدّ عبد الناصر، وتحمّله مسؤولية الهزيمة بمفرده بعد صدور أحكام غير مرضية من المحكمة العسكرية على قادة النكسة.

.. وتبادل إطلاق النار بطول جبهة القناة يؤدي إلى مقتل ١٣ شخصًا وجرح ٦٧ من المدنيين، وقوات التحرير الشعبية تدمّر دبابة إسرائيلية.

.. والاتحاد السوفييتي يعلن تأييده مصر وعونه لها في جميع الميادين، ويؤكد ضرورة انسحاب إسرائيل إلى خطوط ما قبل ٥ يونيو ٦٧.

.. وأم كلثوم سافرت إلى بيروت لإحياء حفلتين في مهرجان بعلبك الدولي يخصّص إيرادهما للمجهود الحربي.

.. وجريدة الأخبار تنشر أخطر جزء في يوميات جيفارا الذي يقول فيه: «جيشنا يتضاعف حماسه دون أن يتزايد عدده» لرفع الرُّوح المعنوية

للجنود.. ومجلّة «المصور» تؤكّد أن وزارة الحربية التي أدارت معارك ٥ يونيو كانت مكتبًا للشؤون العامّة يعمل بالتموين وتجارة السيّارات والفنون.

في ذلك اليوم، وفي بؤرة هذه الأحداث، بدأ أحمد رجب في كتابة «نُصّ كلمة» لأول مرة على صفحات الأخبار، وجاء فيها: استمعت إلى مذيعاتِ مطار روما يُعْلِنَّ عن مواعيد قيام ووصول الطائرات، وكأنني أستمع إلى صوت فيروز يشدو بنغم منساب!.. وسمعت مذيعات مطار فيينا وكأنهن يغنِّين للمسافرين أغنية حالمة عذبة لطفل يوشك على النوم!.. وسمعت المذيعات في مطار القاهرة فندمت ندمًا شديدًا لأنني أجريت عملية استئصال اللوزتين.. لا الأذنين!

علي أمين هو صاحب فكرة «نُصّ كلمة»، فقد كان يقوم بتدريب أحمد رجب على اختزال المقالات الطويلة في كلمات قليلة، ويقول له: اكتب باختصار وتركيز، لا وقت عند القارئ «للَّتّ والعجن»، هناك أدوات حضارية تنافسك كالراديو والتليفزيون، فكن على مستوى المنافسة عندما تكتب.. اكتب باختصار، وكأنك تكتب برقية ستدفع عن كل كلمة فيها قرشًا.

بهذه الطريقة خرجت «نُصّ كلمة» مكثّفة، وعميقة، وقوية تبحث عن الناس لا عن السلطة، تنبّه ولا تَزعج، تكشف ولا تفضح، تسخر ولا تجرح، إنها فلسفة أحمد رجب التي لا يستطيع أحد تطبيقها سواه، فهو يكتب كل يوم دون معونة من أحد رغم أن أغلب الساخرين في العالم يعمل معهم فريق يضمُّ عشرات المتخصصين في كل المجالاتُ، يبحثون وينقبون ويحللون، حتى يستطيعوا كتابة مقال ساخر واحد!

«نُصّ كلمة» هي التاريخ الحقيقي للشعب المصري، لا تاريخ من يحكمونه، فقد كانت الشاهد الأول على ما حدث للمصريين على مدى أكثر من أربعين عامًا، فقد وُلدت في حرب الاستنزاف، وعاصرت حرب أكتوبر، وشهدت عصر الانفتاح، وعاشت معاناة البُسَطاء وتدهوُر قيمة الجنَيه الذي كتب عنه أحمد رجب منذ أكثر منذ ٢٥ سنة قائلاً: زمان كان الجنيه المصري مكتوبًا عليه أتعهد لحامل هذا السند بدفع جنيه ذهب واحد، فقد كان الذهب هو غطاء العملة وقيمة الجنيه هي قيمة الذهب، أما الآن فقد أصبح الغطاء النقدي للعملة هو اللحمة.. كل واحد يبرِّر رفع سعر سلعة يقول شوف كيلو اللحمة وصل كام، فاللحمة أصبحت في مقام الذهب ومن المنتظَر إنشاء بنك مركزي للحمة كما ستصدر الورقة فئة العشرين جنيهًا مكتوبا عليها: أتعهد لحامل هذا السند بدفع كيلو لحمة.

أحمد رجب نحت مصطلحات وأسماءً فرضت نفسها على لغتنا المكتوبة والمنطوقة وعاشت معنا لسنوات طُويلة حتى إننا نَسينا أنه صاحِبها.

فكان أول مَن استخدم كلمة «الكوسة» للتعبير عن الواسطة والمحسوبية -في السبعينيات- وأول من تحدَّث عن دولة فسادستان قائلاً: أحب غنوة شادية يا حبيبتي يا مصر، وفيها مقطع يقول: أصله ماعدّاش على مصر.. فمن يتكلم قليلاً وينجز كثيرًا أصله ماعدّاش على مصر.. ومن يتعامل مع المال العامّ بضمير وشفافية أصله ماعدّاش على مصر، ومن يعتبر الكذب جريمة كبرى أصله ماعدّاش على مصر، ومن يسرق ١٠ مليارات و ٨٠٠ مليون جنيه من فوسفات أبو طرطور يبقى أكيد عدّى على مصر ويقيم في فسادستان.

أحمد رجب لا يكتب نُكتًا في «نُصّ كلمة»، لكنه ينقل بأمانة ما تفعله الحكومة، وهذا هو سرُّ بقاء «نُصّ كلمَة» بنفس تأثيرها على مدى سنوات طويلة، فالكلمة الساخرة لا تنتهي صلاحيتها بمرور الزمن بل إنها تصل إلى قمتها عندما تتكرر الأحداث، والدليل على ذلك قوله: لا بد من تشريع يحدد ثمن الإنسان في تعويضات الكوارث، فحياة المصري تخضع للتسعيرة الحكومية، كما حدث في سقوط طائرة إذ تمّ تعويض الرُّكاب المصريين بالألوف وغيرهم بالملايين، ويقال إن ورثة فلاح تلقّوا تعويضًا ١٠٣٠٠ جنيه عن مصرعه تحت القطار، وتَبيّن أن الـ ٣٠٠ جنيه تعويض لأهله والـ ١٠٠٠٠ جنيه تعويض لأهل الحمار الذي كان يركبه.

كل من يعمل بالكتابة تأتي عليه لحظة يشعر فيها بأنه لا جدوى ممّا يكتبه ولا أمل في الإصلاح، لكن عندما أرسل «مواطن زهقان» رسالة إلى أحمد رجب جاء فيها: إن رجلا اسمه على الملطاوي يعمل مؤذّنًا بجزيرة مالطة أرسل إليه يسأل إن كان أحمد رجب يرغب في العمل معه مؤذنًا في مالطة.

ردَّ عليه أحمد رجب قائلاً: عزيزي المواطن الزهقان: أنا لسه مازهقتش، ولا أتوقع ذلك، ولمعلوماتك أنا الذي درّبت على الملطاوي على الأذان في مالطة!

لكن عندما سُئل: إذا وُلدتَ من جديد وكان لك حرية اختيار العمل من جديد.. ما الذي تختار أن تكونه؟

أجاب: أحب أن أكون نفرًا من أنفار الدُّودة، فأنفار الدُّودة يقومون بعمل جليل وعظيم يشبه ما نفعله نحن، ونحن ننقّي الدودة والآفات من المجتمع والحكومة، ثم إن أنفار الدُّودة مهنة آمنة ليس فيها حبس!

من أرشيف الأستاذ

الصحفي الذي لم يمسك قلمًا!

لو أراد أن يكون صحفيًا لكان أحسن صحفي في مصر.. يعيش في الصحافة ولكن الصحافة لا تعيش فيه.. يعرف أخبار البلد كلها ولكنه لم يكتب خبرًا واحدًا برغم أن له في أخبار اليوم مكتبًا وتليفونًا وساعيًا على الباب.. ليس في مكتبه ورقة واحدة ولا قلم ولا صورة.. الصحفيون يبدؤون عادة من أول السلم ولكنه اكتفى بالجلوس على السلم نفسه ليرقب خطوات الصاعدين إلى المجد وهم يلهثون من التعب والعرق بعضهم يقع في منتصف الطريق ولا يقوى على الصعود، وبعضهم يصل إلى قمة المجد. وربما لأن الهدوء من طبيعته. وربما لأنه من طبيعة عمله. إنه الرجل الوحيد الذي تنحني له رؤوسنا في دار أخبار اليوم ويشترك معنا في حني الرؤوس علي ومصطفى أمين.

إننا نقابله ونجلس معه ونسمع أخباره ونعتقد أننا عرفنا أسرار البلد ونسينا أننا أعطيناه أكثر مما أخذنا.. هل عرفته؟ من هو؟..

مجلة «الجيل»، في ٢٢ أكتوبر ١٩٥٦.

عرفناه كلنا يوم نشرت هذه الكلمة بمجلة «أخبار الدار» التي تصدر داخل أخبار اليوم.. عرفنا أنه الأسطى محمد محمود الرجل الذي كانت صناعته الصحافة وهوايته الخاصة الحلاقة.. كان علي أمين يقرأ له فكرة قبل أن تقرأها الملايين.. كان موسى صبري يدفع إليه بعدد الجيل قبل أن يخرج إلى الناس ليقول رأيه فيه.. كان المحرّرون يجرون إلى صالونه قبل الاجتماعات الأسبوعية ليقترح عليهم أفكارًا للموضوعات.. كان يروي لفتحي غانم أفكارًا للقصص القصيرة وكان فتحي يبدأ بعض هذه القصص بقوله: «قال لي صديقي محمد محمود...».. كان أنيس منصور يهرش رأسه بحثًا عن فكرة مقال أو حديث للراديو وكان الأسطى محمد محمود يلاحقه بالفكرة.. قال له أنيس مرة إنه يبحث عن فكرة حديث مطلوب لركن المرأة في الإذاعة فقال له الأسطى محمد: «تكلم عن مشكلة المصروف عندما يكون في يد الزوجة؛ إنها حينئذ لا تطعم الزوج إلاّ جبنة ونواشف.. وعندما يكون في يد الزوج فإنها تُصِرُّ على أكل الفراخ والحمام ما دام الزوج هو الذي يصرف.. ولما تنفد منه الفلوس تتهمه بأنه لا يستطيع إدارة البيت وتعود إلى المطالبة بالمصروف في يدها».. وذهب أنيس إلى الميكروفون وقال الحديث بحذافيره.. كان مصطفى أمين يناقشه كما لو كان يناقش معقبًا سياسيًا خبيرًا في السياسة.. كان كُتّاب الدار يحسبون لحكمه ألف حساب.. كان يقول للكاتب ذي الاسم الرنان: «اليوميات في الأخبار مش حاجة النهاردة».. كان ناقدًا بارعًا وأديبًا ذوّاقة.. كان لا بد أن يكون كذلك.. فقد كانت رؤوس مصر المفكرة كلها بين يديه.. توفيق الحكيم والتابعي وكامل الشناوي وأحمد الصاوي محمد وسعيد عبده وعشرات الكتّاب والفنانين وأهل الفكر،

كل واحد استوحى من كلماته أفكارًا، كل واحد أفاد من لفتاته الذهنية اللماحة التي كان يقولها في بساطة وثقة وهو ممسك بالمشط والمقص..

ولقد أثبت الأسطى محمد محمود -حتى وهو يموت- حُبّه للأدب والأدباء.. فلفظ الرُّوح وترك وراءه عددًا من الأدباء اللامعين المعروفين وفي ذمتهم ديون له..

ولقد كان محمد محمود محدِّثًا بارعًا يتحدث على السجيَّة ولا ينمِّق العبارات.. كان يتكلم في الوقت المناسب ويسكت في الوقت الذي تطلب فيه المزيد من حديثه.. إنه لم يكن مجرَّد حلاق في أخبار اليوم، بل كان واحدًا منَّا، زميلاً عزيزًا غاليًا. المحرِّرون الكبار يعتبرونه زميلا ناقدًا لهم. والمحرِّرون الصغار يعتبرونه محرِّرًا كبيرًا يرأسهم.. ولكن الصغار والكبار اشتركوا في حبه وتقديره.. كلنا أحببناه.. كلنا بكينا بشراهة يوم أهالوا عليه التراب. كلنا أحسسنا بفراغ مروِّع.. نمرُّ بصالونه في الدار فلا نجد فيه سوى الظلام والصمت والعدم. كلنا لا نجرؤ على الذهاب إلى حلاق غريب عنَّا.. فإننا نحسُّ أن يدًا غريبة سوف تمتد إلى رؤوسنا.. يدًا سوف تنزع الشعر.. ولن تضع -بدلاً منه- لا أفكارًا ولا لمحات.

زعيق.. زعيق.. زعيق

طبعًا لا نهاية لهذا كله إلاّ الجنون ولبس قميص السراية الصفرا!

فإنني أقيم -داخل أخبار اليوم- في غرفة ذات موقع جغرافي نادر، يحدُّها شَمالاً -عند السقف- ورشة حفر الروتو، وجنوبًا مطابع الأخبار، غربًا نافذة بعرض الحائط تطل على خمس ورش في الشارع، شرقًا باب يقع على ممرّ كله زعيق.. زعيق.. زعيق.. زعيق.. مع صوت سوبرانو مجهول لم أستطع اكتشاف مصدره حتى اليوم لا يكف عن ترديد: ميته أشوفك اشوفك يا غايب عن عيني!

داخل الكارو!

وفي كل صباح أجلس في كرسي مكتبي وكأنني أجلس في طيّارة داكوتا قديمة، أو طيّارة كارُو، فكل شيء في الغرفة يهتزّ، الأرض تهتزّ، السقف يهتزّ، والزجاج يهتزّ، فالسقف في حالة زلزالية مستمرّة من ورشة حفر الروتو التي تُصدر صوتًا لا يُفرَق أبدًا عن صوت ألف آلة لحفر الأسنان في وقت واحد!

مجلة «آخر ساعة»، في ١٢ مارس ١٩٦٩.

والأسطى حامد -في الشارع- نازل خبط في الحديد، وعَزُّوز وعليوة في الورشة المجاورة يتبادلان العزف على ألواح الصاج بالمطارق الضخمة، ومكنة خراطة في الورشة الثالثة، وبرادة في الورشة الرابعة، وكلاكسات.. كلاكسات.. كلاكسات... وسيَّارات تُلقِي أمام المطبعة ببوبينات ورق، كل بوبينة -من غير مبالغة- في حجم الفيل، ومع كل بوبينة تسقط على الأرض ينط مَقْعَدي لوحده على فوق من عنف الاهتزاز، ويدور رأسي في الطيَّارة الكارُّو التي أجلس بداخلها، وأتهيأ لربط الأحزمة لأن الطيَّارة على وَشْك الوقوع، لم يتبين لي أن رأسي هو الذي وقع فعلاً، وأنني أُصِبْتُ بجنون الهلاوس، وأنني -أنا أيضًا- أصدر أصواتًا غريبة كالصويت ورأسي بين يدَيّ!

وفي جنون الهلاوس تصبح الكتابة نوعًا من التخريف، ولعلَّ في هذا ردًّا على رسائل الأصدقاء القراء الذين يسألون عن سبب انقطاعي عن الكتابة في بعض الأعداد الأخيرة من «آخر ساعة».

مع الأستاذ فلان

وهربت من الغرفة رقم ٥٣ أو الطيَّارة الكارُّو ٥٣ لأكتب في البيت.

ولَمَّا كانت غرفة مكتبي في البيت تُطِلُّ على سطح جاري الأستاذ فلان بالمعاش، فقد قضيت ساعات ممتعة أشهد تجرِبة مثيرة!

فعلي هذا السطح يقتني الأستاذ فلان جميع أنواع الطيور ابتداءً من العصافير حتى الفراخ ماركة رود آيلاند!

ومن النافذة رأيت الأستاذ فلان يمسك بصاجات مزّيكة حسب الله ويقرعها بشدة في إيقاع غريب، ثم يمسك بقلم ويكتب في كراسة...

وهرشت رأسي في حيرة وأنا أظنُّ برأس جاري الظنون!

وعندما استبدَّ بي الفضول وطللت من النافذة أحدّثه تَبيَّن لي أن بعض الظنِّ إثم، وأن جاري رجل مثقَّف جدًّا يدرس لغة الطيور من واقع كتاب علمي –لمؤلفة أمريكية– اسمه «لغة الطيور والحيوانات»!

واتضح لي –من كلامه– أن الغرض من ضرب الصاجات هو دراسة أثر الإيقاعات الموسيقية على الفراخ!

قلت له: أجيب لك زمارة!

قال: عندي.. ألف شكرا!

وفعلاً بعد قليل أخرج من جيبه هارمونيكا وراح ينفخ فيها كيفما اتفق والفراخ تكاكي جماعة وهو يدوِّن ملحوظاته!

والتفت إلى قائلاً: سامع ضحك الفراخ؟!

قلت له: فعلاً شيء ظريف.. لكن مش سامع ولا فرخه بتقول اللهم اجعله خير.. ليه يا ترى؟

وانطلق يشرح لي كيف أن الفراخ لها لغة أخرى غير لغتنا الآدمية وكيف تتفاهم مع بعضها بالنغمات الصوتية التي تُصدِرُها.. ثم التفت إلى ديك وانحنى بجواره يقول: هووو.. كا.. هووو.. كا.

وعاد إلى ضرب صاجات الموالد!

ومع العشاق يا هوى!

وجمعت أوراقي هاربًا إلى الهرم. وفي حديقة محلٍّ هادئ جلست أكتب، وما لبث أن توافد العُشّاق والأحبَّة اتنين اتنين، وانتشروا في الموائد أمامي وخلفي ويميني ويساري وفي كل اتجاه!

ولمّا كان كل عاشق منهمكًا في السرح بالمحبوبة، فشيء طبيعي أنه يكذب، وما دام يكذب، فالصوت الخافت هو أنسب الأصوات للكذب، فيكفي أن تهمس في أذن إنسان بأكذوبة ليصدِّقها لا لشيء إلاّ لأنها قيلت همسًا.

تلك ميزة أفادتني في توفير الهدوء من حولي، غير أن الهدوء جعل الهمس مسموعًا فبدأ العشاق يعبثون بأزرار الراديوهات الترانزستور لإحداث الشوشرة اللازمة على أسرارهم العاطفية العُليا حتى لا تصبح مسموعة، وانطلقت شادية تغنّي «خدني معاك»، بينما عبد الحليم حافظ في محطة أخرى: «طوّحنا يا هوى.. يا هوى.. يا هوى طوحنا»!

وبدأت أشعر بأن رأسي هو الذي يتطوح، فانتقلت إلى مائدة بعيدة منعزلة تجاور مائدة عاشقَين من غير ترانزستور!

وزغر لي روميو زغرته إلى عزول جاء يقطع عليه ساعة تَجَلٍّ، وجلست وظهري إليهما احترامًا مني لساعة التجلي، ودامت فترة صمت بين الاثنين، ما لبث أن قطعها فجأة عبد الحليم حافظ –برضه براديو ترانزستور– «طوّحنا يا هوى يا هوى طوّحنا»!

فقد أخرجت جوليا الراديو من شنطتها في الوقت المناسب.

ولأول مرة أكتشف أن الترانزستور له منافع أخرى غير الاستماع إليه.

ومع المخاريس!

ورحت أبحث بعينَيَّ عن مائدة أخرى.

هناك بعيدًا يجلس زوجان. مؤكَّد زوجان، فهو مخروس وهي تشتغل كروشيه في صمت.

الجلسة إلى جوارهما عظيمة فعلاً. خَرَس. خَرَس. خَرَس كامل.. ولكن ما لبثت الخادمة أنِ أقبلت بأولاد من عند المراجيح لأجلس في مولد، وما لبث المولد أن تحوَّل إلى هدوء بابتعاد العيال ليعقب هذا الهدوءَ خناقةٌ بين الزوجين لا أعرف كيف بدأت، وإنما من الواضح أن موضوعها كان: أخته اللي زي التِّعبان!

وجمعت أوراقي هاربًا..

العب يا سمك!

في الليل جلستُ في غرفة مكتبي داخل الطيَّارة الكارُو ٥٣ الآن فيها هدوء نسبي. الورش قافلة: ومكنة الحفر فوقي تعمل بشكل متقطع ولكن يمكن احتماله. وفجأة انطلق ميكروفون يصفر كميكروفون مطار القاهرة: ألو.. ألو.. واحد.. إتنين.. تلاتة.. أربعة.. خمسة.. محلات عبيد الكبرى لأشغال الكهرباء مستعدة لإحياء أفراحكم والعاقبة عندكم في المسرَّات.. سيداتي سادتي فرقة الأسطى تفيدة تقدم لكم هذه الغنوة: «العب يا سمك وارقص بحنان». واشتغل التخت «العب يا سمك»... ولعبت معدتي!

وسبحان مغيِّر الأحوال!

واليوم تبدلت الحال!

فبعد فترة من العزال إلى هذه الطيَّارة الكارُّو، اعتدت السُّكْنَى فيها، وأصبح الضجيج القاتل جزءًا من حياتي اليومية، تشبعت أعصابي بضوضاء المكن وضرب المطارق والكلاكسات كما يتشبع جسم مدمن التدخين بالنيكوتين فيغدو هذا النيكوتين ضرورة جسمية وضرورة نفسية أيضًا يؤثر غيابها على مزاجه، هكذا كنت وكذلك أصبحت، وسبحان مغير الأحوال! صار الهدوء يثير أعصابي ويفسد مزاجي!

المشكلة!

واليوم قبل كتابة هذه السطور كنت في محنة!

فإن الإمبراطور حازم فودة -إمبراطور «آخر ساعة»- يطاردني بالتليفون من الفجر لأكتب، فاليوم هو آخر موعد لتقديم «آخر ساعة»!

ودخلت مكتبي إلى الطيَّارة الكارُّو وجلست على الكرسي لأفاجأ بأن كل شيء هادئ جدًا من حولي، وورشة الحفر محروسة، والورش في الشارع لا يصدر عنها أي دَق في دماغي، والكرسي تحتي ثابت لا ينط من بوبينات الورق المهبودة على الأرض.

أعصابي بدأت تتوتر. عايز دوشة. خَرمان دوشة. فين الدوشة؟ ما فيش دوشة بدل هدوء مميت وكأني قاعد في شاليه معزول بسيدي عبد الرحمن. هذه مسخرة. كيف يمكنني أن أكتب في هذا الجوِّ الهادئ؟ مستحيل طبعًا. ولكنني يجب أن أكتب. فإن الإمبراطور حازم فودة يفتح الباب كل شوية ويُصدِر أوامره الإمبراطورية بأنه عايز المقالة حالاً وفورًا وبسرعة.

...

وحل المشكلة

وصعدت إلى الأسطى محمد فتحي رئيس ورشة حفر الروتو فقال: «معندناش شغل النهاردة»! ورجوته أن يدير مكن الحفر على الفاضي، واعتذر بأن المكن في حالة تنظيف!

وفتحت النافذة وناديت الأسطى حامد ليعزف وصلة حديدية.. ولكنني لم أجده.

وناديت عزُّوز وعليوة بالورشة المجاورة، وخرج إليَّ عليوة وفي يده سندوتش.

– ما بتشتغلش ليه يا عليوة؟

– كمان شوية... ليه؟

– أبدًا.. افتكرتك عيان إنت وعَزُّوز قلت اسأل عليكم.

– سألت عليك العافية.

– ممكن تخبُط شوية في الصاج!

– (مندهشا).. ليه؟!

– أبدًا.. رياضة. تعمل رياضة.

– هاهاهاها.. كويسة.

واعتبرها نكتة، وبقيَت المشكلة.

و لم أجد إلاَّ بوفيه محطة باب الحديد لأكتب لك منه هذا الأسبوع!

شكر واجب

إلى الصديق والشاعر والساخر أشرف توفيق.

شكر دائم

إلى أخي وصديقي ورفيق الكتاب أحمد الليثي.

قراءات المؤلف

أولاً: كتب أحمد رجب

- جدًا جدًا جدًا.
- كلام فارغ.
- توتة توتة.
- نهارك سعيد.
- الحب هو.
- الحب وسنينه.
- أي كلام.
- ضربة في قلبك.
- الأغاني للأرجباني.
- مشوار عصام بهيج.
- الفهامة.
- صور مقلوبة.
- ٢\١ كلمة ١٩٧٣.

- ١\٢ كلمة ١٩٧٥.
- ١\٢ كلمة ١٩٩٣.
- ١\٢ كلمة ٢٠٠٤.
- مطرب الأخبار.
- كَفر الهناذوَة.
- كمبورة في البرلمان.

ثانيا: كتب أخرى

- أحمد فؤاد أمين، ظرفاء القرن.
- سعيد هارون عاشور، أخبار المصريين في القرن العشرين.
- د.شاكر عبد الفتاح، الفكاهة والضحك.
- عادل وديع فلسطين، يوميات حرب أكتوبر.
- فوزية الأشعل، الساخر مصطفى حسين.

ثالثا: الصُحف والمجلات

- مجلّة «الجيل» الفترة ١٩٥٤-١٩٥٩.
- جريدة الأخبار عام ١٩٦٨.

- مجلّة «آخر ساعة» الفترة ١٩٦٧-١٩٦٩.
- مجلّة «الكواكب» عام ١٩٧٧.
- مجلّة «أخبار الأدب» مارس ٢٠٠٦ ويوليو ٢٠٠٩.
- مجلّة «الهلال» عدد ديسمبر ١٩٩٥.
- جريدة «صوت الأمة» عدد ١ ديسمبر ٢٠٠٣.

ولدي
الصحفي الموهوب محمد توفيق
لا أعرف حتى الآن كيف تمكنت
من الحصول على هذا الكتاب .. رغم
الذي يؤكد أنك تمتلك أدوات
الصحفي الناجح الذي تمتلك صبر ومكر
الثعالب، بل أنت المحاور الذي
عرف جيداً كيف يجعلني أخرج
كتاباً رائعاً .. سعيد
وسعيد بك لأنك
من أبناء الصحافة الجميلة
مع كل الحب

[illegible]

مارس ٢٠١٦